الإسلام والآخر

من يعترف بمن؟.. ومن ينكر من؟

دكتور محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

الإسلام والآخر

من يعترف بمن؟.. ومن ينكر من؟؟

الطبعـــة الرابعة

١٤٢٥هـ ـــ ٢٠٠٤م



٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسي ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

د. محمد عمارة

الإسلام والآخر

من يعترف بمن؟.. ومن ينكر من؟؟





تقديم

المسلمون - وأحيانا الإسلام - متهمون في الكثير من دوائر الفكر الغربي، وكل دوائر الفكر العلماني، بالتعصب المقيت، وإنكار الآخر، وتكفير الآخرين.. ولقد شاعت وتشيع هذه الاتهامات على ألسنة وأقلام غلاة العلمانيين في بلاد الإسلام، يستوى في ذلك المسلمون وغير المسلمين من هؤلاء العلمانيين الغلاة..

وإذا كان تحرير وتحديد المفاهيم - مفاهيم المصطلحات - هو الطريق الآمن لأى حوار حقيقى، بل ولاكتشاف مساحات الاتفاق والاختلاف بين مختلف الفرقاء.. فلنبدأ بتحرير مضمون ومفهوم مصطلح **«التكفير»**..

● إن **«الكفر»** هو نقيض **«الإيمان»**.. فكل مؤمن بشيء هو - بالضرورة - كافر وجاحد ومنكر لنقيض هذا الشيء.. فالمؤمن بالتثليث كافر بالتوحيد.. والمؤمن بالتوحيد كافر ومنكر للتثليث.. والمؤمن بأن **«عزيراً»** - **«عزرا»** - عبدالله، كافر ومنكر لعقيدة أن عزيراً ابن الله - والعكس صحيح -.. والمؤمن بأن عيسى، عليه السلام عبدالله ورسوله، منكر وجاحد وكافر بأن عيسى ابن الله وإله - والعكس صحيح -.. والمنكر لكون القرآن الكريم وحياً إلهيًا، ولكون محمد ﷺ نبيًا ورسولا، هو - بالضرورة - كافر بالإسلام ديناً سماويًا..

وكذلك الحال فى ميدان المذاهب والفلسفات و«**الأيديولوچيات**»..

فالمؤمن بالفاشية والنازية كافر بالديمقراطية - والعكس صحيح - .. والمؤمن بالشيوعية كافر بالليبرالية الرأسمالية - والعكس صحيح -.. فكل مؤمن بشىء هو كافر بنقيضه، **أى أن كل إنسان - من غير اللاأدريين هو - فى الحقيقة - مؤمن وكافر فى ذات الوقت.. فالكفر ليس سُبَّة ولا نقيصة بإطلاق وتعميم، ولكن المعيار هو: كفر بماذا؟.. وكذلك الإيمان، ليس ميزة وإيجابية بإطلاق وتعميم، وإنما العبرة فيه هى: الإيمان بماذا؟..**

ولقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة، التى يجهلها البعض ويتجاهلها الكثيرون، عندما صوّر الإيمان والكفر وجهين لعملة واحدة، فقال:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾

[البقرة: ٢٥٦]

فكل مؤمن بالله الواحد الأحد هو كافر بالطاغوت والطواغيت - والعكس صحيح -..

فأين هى التهمة - إذًا - فى أن يصنف المسلمون من يكفرون بالإسلام دينًا سماويًا وبالقرآن وحيًا إلهيًا، وبمحمد بن عبدالله نبيًا ورسولا، فى عداد الكافرين بهذا الذى هم به كافرون وله منكرون وجاحدون؟!..

وألا يصنِّف المؤمنون بالتثليث أهل التوحيد الخالص - المنكر للتعدد والحلول والاتحاد - فى عداد الكافرين بهذا التثليث؟..

بل، وألا تعتبر المذاهب النصرانية الكبرى - الأرثوذكسية.. والكاثوليكية.. والبروتستانتية - فضلا عن الآريوسية[1] - المخالف لها فى «قانون الإيمان» كافرا بهذا «القانون» - الذى هو جوهر وجماع أصولَ الاعتقاد - داخلا فى «الحرمان الدينى»، الذى هو الكفر والتكفير؟!..

لقد رفض قساوسة دير «سانت كاترين» - بسيناء - وهم من الروم الأرثوذكس - أن يصلى بابا الفاتيكان والحبر الأعظم للكاثوليكية - يوحنا بولس الثانى - داخل الدير - عند زيارته له فى فبراير سنة ٢٠٠٠م.. لأنه - فى نظرهم - غير «مؤمن» - حسب مقاييسهم للإيمان.. وما هى إلا شهور معدودة، حتى صدر عن الفاتيكان ما يؤكد أن هذا هو الموقف الطبيعى والمتبع بين كنائس النصرانية.. فصدر - فى سبتمبر سنة ٢٠٠٠م - القرار الذى يؤكد ويعلن **أن الكنائس غير الكاثوليكية «ليست كنائس بالمعنى الصحيح.. وأن الخلاص فى اليوم الآخر محصور فى الكنيسة الكاثوليكية وحدها..»**[2].

ناهيكم عن موقف كل هذه الكنائس من الإسلام والمسلمين.. فهم - فضلا عن تكفير المسلمين، لجحدهم الإسلام كدين، وكفرهم بالقرآن وحيًا

---

(١) الآريوسية: هى الاتجاه الموحد فى المسيحية الشرقية. منسوب إلى «**آريوس**». وفى ميلاده خلاف بين سنوات ٢٥٦، ٢٧٠، ٢٨٠م - وكانت وفاته سنة ٣٣٦م. جمع بين علوم مدرسة أنطاكية ومدرسة الإسكندرية. وكان واحداً من رجال الدين فى الإسكندرية، وتتميز نزعته بإنكار ألوهية المسيح، فالله عنده جوهر أزلى أحد، لم يلد ولم يولد، وكل ما سواه مخلوق، حتى «**الكلمة**»، فإنها، كغيرها من المخلوقات، مخلوقة من لا شىء، وليست من جوهر الله فى شىء. ولقد أدانه هو وأتباعه ونزعته التوحيدية مجمع «**نيقية**» - الذى دعا إليه الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٢٥م - ثم نصره مجمع القدس بعد عشر سنوات. لكن الآريوسية اضمحلت بعد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م.

(٢) محمد السماك «**الفاتيكان والإيمان المختلف**» - الأهرام - فى ٢٠/٩/٢٠٠٠م.

إلهيًّا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولا - يمارسون - ويعلنون - كفر وتكفير بعضهم البعض داخل النصرانية الواحدة!!..

يحدث هذا اليوم، بينما فتح رسول الله ﷺ مسجد النبوة - بالمدينة المنورة - قبل أربعة عشر قرنا - فصلى فيه نصارى نجران صلاة عيد الفصح!.. ومع ذلك لا يستحي غلاة العلمانيين من تخصيصهم الإسلام والمسلمين بهذا الابتزاز!..

تلك هي حقيقة الزيف والافتراء اللذين يخص بهما الفكر العلماني والإعلام الغربي الإسلام والمسلمين.. يخصونهم بالتعصب، ونفي الآخر، وضيق الصدر والأفق، والتكفير للآخرين!..

بل ويحدث هذا الافتراء، على الرغم من امتلاء أدبيات الإسلام بالتحذير من المسارعة إلى التكفير، حتى ليقول الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]: **«لقد اشتهر بين المسلمين وعُرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر..»**(١)..

ومن قبله قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ - ١١١١م]: **«ينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلا، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، خطأ. والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم..»**(٢).

---

(١) [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، جـ٣، ص٣٠٢، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٢) [الاقتصاد في الاعتقاد]، ص١٤٣، طبعة مكتبة صبيح، القاهرة، بدون تاريخ.

كمـا يقـول الإمـام النووى [٦٣١ - ٦٧٦هـ/ ١٢٣٣ - ١٢٧٧م] - فى شرحه لصحيح مسلم - مخاطبا كل مسلم، ومحذرا له من الحكم على ما فى القلب والضمير: « .. **إنك إنما كُلِّفْتَ بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه..»**

ويجمع فيه علماء الأمة الإسلامية على أن حكم الكفر إنما يطلق على «المقولة»، وليس على «القائل» لهذه المقولة، إذ ربما يكون لديه تأويل حتى ولو كان فاسداً .. فهذا التأويل - حتى الفاسد منه - يُخرج قائل الكفر - فضلا عن ناقله - من عداد الكفار!.. لأن التأويل الفاسد شبهة، والحدود تُدرأ بالشبهات..

لكن ابتزاز الإسلام وحده، يصل إلى حد إرهاب علماء الإسلام بأنهم **«مكفراتيه»**!.. ويصدر هذا الابتزاز من الذين يعلنون - نعم يعلنون - أنهم قد اختاروا مقولات ونظريات وفلسفات الكفر البواح.. فالماركسية - مثلا - مؤسسة على الفلسفة المادية.. فهى تفسر الكون والخلق والحياة وفق **«المادية الجدلية»**.. وتفسر التاريخ وفق **«المادية التاريخية»**.. وتعلن فى كل أدبياتها **«أن المادة مستكفية بنفسها، مستغنية عن خالق يوجدها.. وأى دفاع أو تبرير لفكرة الله - مهما كان جيداً، ومهما حسنت نواياه - هو تبرير للرجعية..»**[1]!

والماركسيون الذين عقدوا - بمصر - ندوة فكرية كبرى - عقب سقوط الاتحاد السوفييتى - قد أعلنوا أن الذى سقط هو **«التطبيق السوفييتى للاشتراكية»**، أما أسس الماركسية، وخاصة المادية الجدلية والمادية التاريخية،

---

(١) د. مراد وهبة [المعجم الفلسفى] - مادة **«مادى - مذهب»** - طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م. و[الموسوعة الفلسفية] - لمجموعة من العلماء السوفييت - بإشراف: م. روزنتال، ب. يودين. ترجمة: سمير كرم. طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م - مادة **«تشييد الله»**.

فإنها **«علم»** لا يراجع، ولا يلحقه السقوط.. هؤلاء الماركسيون، الذين أعلنوا أن الكفر والإلحاد وإنكار وجحود كل إيمان دينى هو **«علم»** لا يراجع، هم فى مقدمة الذين يبتزون علماء الإسلام، برميهم بتهمة المسارعة إلى تكفير الآخرين!.. بل إن بعضا من هؤلاء الماركسيين قد احترفوا الكتابة فى الفكر الإسلامى، زاعمين أن لديهم هم **«صحيح الدين»**، فى حين يعلم الله مدى جهلهم المطبق حتى بقواعد الاستنجاء!!.. لكنه الابتزاز الذى افتقر أهله إلى أدنى درجات الحياء!..

إنهم يتجاهلون - ولا أقول يجهلون - أن الإيمان الدينى - كأى لون من ألوان الانتماء - له شروط وواجبات وصفات.. فمن يدعى الانتماء إلى حزب ماركسى، بينما هو يعلن - بالقول والعمل - أنه ضد الفلسفة المادية، والملكية الجماعية، والصراع الطبقى، وديكتاتورية البروليتاريا، لن يصدق عاقل انتماءه إلى الماركسية وأحزابها.. وكذلك الحال مع من يعلن انتماءه إلى الليبرالية، على حين لا يؤمن بالملكية الفردية، والحرية الاقتصادية، وفائض القيمة، لا يمكن أن يكون ليبراليا رأسماليا.

إن أحدا لن يصدق **«مكارثى»** إذا أعلن أنه شيوعى!.. ولن يصدق أحد **«ستالين»** [١٨٧٩ - ١٩٥٣م] إذا ادعى أنه ليبرالى رأسمالى.. وليس هناك عاقل يمكن أن يصدق **«هتلر»** [١٨٨٩ - ١٩٤٥م] أو **«موسولينى»** [١٨٨٣ - ١٩٤٥م] إذا أعلنا انتماءهما إلى الديمقراطية!..

وكذلك الحال مع الانتماء إلى الإيمان بالإسلام.. فالذين لم يُر أحدهم راكعًا ولا ساجداً لله، ولا داعيًا إلى عقائد الإسلام، ولا ملتزمًا بأركانه

المميزة لأهله عمن سواهم.. هل يعقل عاقل انتماءهم إلى الإسلام، مهما ألحوا فى ابتزاز علماء الإسلام وإرهابهم وتخويفهم من سلاح التكفير؟!..

صحيح وحق وواجب ضرورة الحذر الإسلامى من المسارعة إلى التكفير.. «**فلا يسارع إلى التكفير إلا الجهلة**» ـ كما يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ـ .. وصحيح وحق وواجب ـ أيضا ـ أن يقف التكفير عند تكفير «**المقولات**» دون «**القائلين**».. إذ ربما كان لهؤلاء القائلين تأويل، حتى ولو كان فاسدا.. فالتأويل الفاسد شبهة، والحدود تُدرأ بالشبهات.. لكن كل هذا خاص بالذين لا يعلنون انتماءهم إلى الكفر الصريح البواح، و«**نضالهم**» فى سبيل الإلحاد.. ففى تيارات الفكر المادى المعاصر من هو «**غنى عن التكفير**»!.. كما أن فى الناس من هو «**غنى عن التعريف**»!..

هذا عن تهمة الكفر والتكفير..

* * *

● أما تهمة «**إنكار الآخر**»، التى شاع ويشيع اتهام المسلمين بها، فإنها تعنى إنكار حق الآخر فى الوجود، والسعى إلى استئصاله، أو على الأقل استثنائه من المشاركة فى العمل العام.. وهنا يرد التساؤل ـ بل والتساؤل الإنكارى والاستنكارى ـ:

ـ من ـ فى الواقع المعاصر.. بل والقديم ـ هو الذى ينكر الآخر؟.. ومن الذى يستأصل الآخر ويستثنيه؟..

إن واقع الحال المعاصر يقول ـ بكل ألسنة الحال والمقال ـ إن المسلمين هم ضحايا الإنكار والاستثناء والاستئصال.. فكثير من البلاد الإسلامية ـ

التى أخذت بالتعددية الحزبية - تسمح بكل الأحزاب التى تمثل كل **«الأيديولوچيات»**، لكنها تستثنى الإسلاميين، الذين ينطلقون من الدعوة إلى الشريعة الإسلامية وإسلامية الدولة والقانون والاجتماع.. ومسموح لأى جماعة أو جمعية أو حزب أن يرى الاشتراكية هى الحل.. أو الليبرالية هى الحل.. أو القومية هى الحل.. أما أن ترى جماعة أو جمعية أو حزب أن الإسلام هو الحل.. فذلك محظور وممنوع!..

يحدث هذا حتى فى بعض البلاد التى تنص دساتيرها على **«أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام»**.. وعلى **«أن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع»**.. ومع ذلك يسمح فيها بالأحزاب التى تدعو إلى مختلف «**الشرائع**» والفلسفات، باستثناء الحزب الذى يدعو إلى شريعة الإسلام!..

وكثير من المؤسسات الثقافية والفكرية، التى يقبض على زمامها العلمانيون، نجد فيها كل ألوان الطيف الفكرى والفلسفى و**«الأيديولوچى»**، بينما الاستثناء والإقصاء والاستئصال خاص بالإسلاميين ومرجعية و**«أيديولوچية»** الإسلام..

وكثير من البلاد «الإسلامية - العلمانية» وشبه العلمانية تأتمن المدرسين الماركسيين والملاحدة على التدريس لأبنائها - فى المدارس والجامعات - وصياغة عقول ووجدانات شبابها - بمؤسسات الثقافة والإعلام - بينما تحرم المتدينين من هذا العمل، فتحيلهم إلى الأعمال الإدارية، وتبعدهم عن مهنة التربية والتعليم والتثقيف والإعلام!..

وفى بعض هذه البلاد الإسلامية، تصل هيمنة الماركسيين وغلاة العلمانيين على أجهزة الثقافة إلى الحد الذى يجعل جوائز الدولة كلأً مباحا للماركسيين والعلمانيين - بل والبهائيين - بينما هى حرام على علماء الإسلام ومفكريه!..

وكل الدول **«الديمقراطية»**، فى الغرب **«الديمقراطى»**، ترضى عن نتائج الانتخابات - النيابية والنقابية - فى العالم الإسلامى، يمينا كانت أو يسارا توجهات الفائزين فى هذه الانتخابات، اللهم إلا إذا جاءت صناديق الاقتراع بالإسلام والإسلاميين.. فهنا يصل الإنكار والإقصاء والاستئصال إلى حد تأييد **«الديمقراطيين»** الغربيين للانقلابات الفاشستية على إرادة الشعب والانتخابات الديمقراطية النزيهة!.. وكذلك الحال مع الحق الفطرى والديمقراطى فى **«تقرير المصير»**، فهو مطلب ديمقراطى، يسعى إليه الغرب الديمقراطى، بل ويفرضه أحيانا - كما حدث فى **«تيمور الشرقية»** سنة ٢٠٠٠م.. وسكانها أقل من مليون - .. لكن هذا الغرب **«الديمقراطى»** يستثنى الشعوب المسلمة من الحق الطبيعى والديمقراطى فى «تقرير المصير».. وشواهد هذا الاستثناء والإقصاء تغطى خريطة المعمورة، من كشمير.. إلى الفلبين.. إلى بورما.. إلى البوسنة.. وكوسوفا.. وحتى فلسطين.. ومثل ذلك يحدث على جبهة حقوق الإنسان، فمن حق كل إنسان وشعب وأمة أن يختار القانون الذى يحكم حياته ودولته ومجتمعه، اللهم إلا إذا كان هذا القانون هو الشريعة الإسلامية.. فهنا يصبح هذا الحق الطبيعى - فى نظر **«الديمقراطية»** الغربية والحرية الليبرالية - تطرفا وتشددا ورجعية وماضوية وظلامية و**«أصولية مرذولة»**، بل وانقلابا على حقوق الإنسان!!..

* * *

وأمام هذا النفاق الغربى والعلمانى - الذى تفوق على نفاق زعيم المنافقين عبدالله بن أُبىّ بن سلول [٩هـ - ٦٣٠م]!!.. لابد أن نتساءل:

- لماذا هذا الإنكار والجحود والاستثناء والإقصاء للإسلام والإسلاميين والمسلمين؟.. وهل هذا الموقف حديث؟!! ونابع من الأطماع الاستعمارية الحديثة والمعاصرة فى بلاد المسلمين؟.. أم أن لهذا الموقف جذوره فى الثقافة الغربية تجاه الآخر - عموما - وخاصة إذا كان هذا الآخر هو الإسلام والمسلمين؟..

لننظر.. كيف تجيب حقائق الفكر والتاريخ.

د. محمد عمارة

* * *

العالم فى التصور الإسلامى

إن دراسة هذه القضية المشكلة فى الثقافة الغربية، تقتضى رؤيتها مقارنة بالرؤية الإسلامية للآخر.. لا لمجرد المقارنة - وهى مطلوبة - وإنما ليعرف الناس من ينكر من؟.. ومن هو الذى يعترف ويتعايش مع كل الآخرين؟.. ومن الذى يجحد ويسعى لاستئصال كل الآخرين - وفى المقدمة الإسلام والمسلمون -؟!

إن الرؤية الإسلامية العقدية والفكرية - والتى تجسدت فى تاريخنا الحضارى واقعا معاشًا عبر القرون - ترى أن الأصل والسنة والقاعدة والقانون، هو التنوع والتمايز والاختلاف.. فالواحدية والأحدية فقط للذات الإلهية، ومن عدا وما عدا الذات الإلهية يقوم على التعدد والاختلاف.. ذلك هو القانون التكوينى الذى يسود ويحكم كل عوالم المخلوقات، فى الإنسان.. والحيوان.. والنبات.. والجماد.. وفى الأفكار والفلسفات و**«الأيديولوچيات»**.. وفى الشرائع والملل والديانات..

● لقد بدأت الإنسانية أمة - جماعة - واحدة، ثم صارت شعوبا وقبائل، ليتم بينها التسابق والتدافع والتعارف. قال الله تعالى:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ... ﴾ [البقرة: ٢١٣]

وهذه التعددية هى سنة كونية، وآية من آيات الله، سبحانه وتعالى كما يقول فى كتابه الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات: ١٣]

● ومع سنة وقانون التعددية فى الشعوب والأمم والقبائل، ترى الصورة الإسلامية للعالم أن الأصل هو تنوع الإنسانية فى الألسنة واللغات - ومن ثم فى القوميات - وكذلك فى الأجناس والألوان.. وهو تنوع يبلغ مرتبة **«الآية»** من آيات الله:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) ﴾ [الروم: ٢٢]

ولذلك، لا ينكر الإسلام التنوع القومى، لأن القوميات هى **«دوائر لغوية»**، والتنوع اللغوى - ومن ثم القومى - هو سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. فهو - الإسلام - يعترف بالآخر القومى، سواء فى إطار الجامعة الإسلامية والحضارة الإسلامية، أو فى الدوائر الحضارية الأخرى.. يعترف الإسلام بهذا الآخر، ومن ثم يتعارف عليه، ويتعايش معه، لا كمجرد واقع لا فكاك منه، وإنما باعتبار هذا الاعتراف وهذا التعارف سنة من سنن الله، سبحانه وتعالى، وإرادة تكوينية لخالق هذا الوجود..

● ومع التعدد والتنوع والاختلاف فى الشعوب والأمم والجماعات.. وفى اللغات والقوميات.. وفى الأجناس والألوان.. هناك سنة وآية وقانون التنوع والتمايز والاختلاف فى الشرائع والملل الدينية.. وفى المناهج والثقافات والحضارات:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾ [المائدة: ٤٨]

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) ﴾

[هود: ١١٨]

فالناس سعيهم شتى:

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل: ٤]

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) ﴾ [البقرة: ١٤٨]

وفى تفسير المفسرين لآيتى سورة هود، يقولون: **«وللاختلاف خلقهم»**(١).. فالتنوع والاختلاف من علل وحِكَم الخلق، وذلك حتى يكون هناك استباق وتدافع وتنافس على طريق الصلاح والإصلاح والخيرات.. ولذلك، **كانت الرؤية الإسلامية للمستقبل - وحتى يرث الله الأرض ومن عليها - على أنه مستقبل تتعدد فيه الملل والشرائع والديانات.. وظهور الإسلام على الدين كله هو ظهور «الحلول» الإسلامية، وليس وراثة الإسلام لسائر الشرائع والديانات..**

وهذه الصورة الإسلامية للوجود، بعوالمه المختلفة، والقائمة على التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف والتعارف والتعايش.. لم تقف عند الموقف «النظرى»، الذى يعترف بالآخر على مضض، والذى يضيق بواقع التعدد

---

(١) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] جـ٩، ص١١٤-١١٥، طبعة دار الكتب المصرية. - ومن المفسرين الذين قالوا - فى تفسير هذه الآية - بحتمية بقاء الناس **«على أديان - أى شرائع - شتى»** الحسن البصرى [٢١ - ١١٠هـ/ ٦٤٢ - ٧٢٨م] ومقاتل بن سليمان [١٥٠هـ/٧٦١م] وعطاء بن دينار [١٢٦هـ/ ٧٤٤م]..

والاختلاف، مع التسليم بوجوده.. وإنما بلغت وتبلغ هذه الصورة الإسلامية - فى التحضر والرقى - حد العدل والإنصاف لهذا الآخر، على اختلاف ألوان هذا الآخر..

فعلى حين يقف إيمان اليهود عند اليهودية وحدها، مع إنكار وتكفير ونفى جميع الآخرين.. وعلى حين تصنع مذاهب النصرانية ذلك أيضا مع كل الآخرين:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ (٩١) ﴾ [البقرة: ٩١]

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ (١١٣) ﴾

[البقرة: ١١٣]

على حين ينكر كلٌّ الآخر وينفيه، يتفرد الإسلام والمسلمون بالاعتراف بكل الشرائع والملل وجميع النبوات والرسالات، وسائر الكتب والصحف والألواح التى مثلت وحى السماء إلى جميع الأنبياء والمرسلين، منذ فجر الرسالات السماوية وحتى آخر وخاتم هذه الرسالات.. وفوق هذا الاعتراف، هناك القداسة والتقديس والعصمة والإجلال لكل الرسل وجميع الرسالات:

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ (٢٨٥) ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

والقرآن وحده هو الذى يؤكد على أنه قد جاء مصدقا لكل وحى الله إلى جميع الرسل والأنبياء.. وهو الوحيد الذى يذكر، صراحة وباللفظ، هذه الكتب السماوية - صحف إبراهيم، وتوراة موسى وألواحه، وزبور داود، وإنجيل عيسى:

﴿ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾ [النساء: ١٦٢-١٦٥]

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾

[الأعلى: ١٨-١٩]

«فقانون الإيمان» لدى كل ملة غير ملة الإسلام لا «يكتمل» إلا بإنكار كل الآخرين وتكفيرهم.. والإيمان الإسلامى وحده هو الذى لا يكتمل إلا إذا آمن أصحابه بكل النبوات والرسالات وكتب وشرائع هذه النبوات والرسالات.. بل ولا يكتمل هذا الإيمان الإسلامى إلا إذا مكّن المسلمون أهل تلك الشرائع والملل من إقامة عقائدهم، المخالفة للإسلام، بل والتى تنكر

وتجحد الإسلام!!.. فالإسلام وحده هو الذى لا يقف اعترافه بالآخر عند الآخر الذى يعترف بالإسلام - وليس فى الآخر الدينى من يعترف بالإسلام دينًا، وبنبى الإسلام رسولاً، وبقرآن الإسلام وحيًا إلهيًا -.. وإنما يتفرد الإسلام بالاعتراف حتى بالآخر الذى يجحده وينكره!..

وما على الذين يريدون المقارنة بين صورة الآخر فى الثقافة الإسلامية، والعقيدة الإسلامية، والوجدان الإسلامى - ليدركوا هول البون الشاسع والتناقض الفاحش بين هذه الصورة وبين صورة الإسلام والمسلمين فى ثقافة الآخر غير المسلم - ما على هؤلاء إلا أن ينظروا إلى صورة الآخر فى ثقافة الإسلام والمسلمين..

* * *

الإسلام واليهودية :

من يعترف بمن؟.. ومن ينكر من؟؟

● إن صورة موسى، عليه السلام، وأخيه هارون، عليه السلام، فى الثقافة الإسلامية ـ التى صاغها وصبغها القرآن الكريم ـ هى صورة: حبيب الله.. الذى صنعه الله على عينه.. وقرّبه.. واستخلصه لنفسه.. وجعله كليمه.. ونجيّه.. واستجاب دعاءه.. وسلَّم عليه.. وجعله القوى الأمين.. وآتاه الكتاب والفرقان والسلطان.... وصورة هذا الكتاب ـ التوراة ـ فى القرآن الكريم ـ هى صورة: الإمام.. والرحمة.. والهدى.. والنور.....

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه: ٣٩]

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) ﴾ [مريم: ٥١-٥٢]

﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾ [النساء: ١٦٤]

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [الأعراف: ١٤٤]

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) ﴾

[طه: ٢٥-٣٦]

﴿ سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) ﴾ [الصافات: ١٢٠-١٢٢]

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) ﴾ [القصص: ٢٦]

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) ﴾ [البقرة: ٥٣]

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) ﴾ [النساء: ١٥٣]

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾

[الأنبياء: ٤٨]

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً (١٢) ﴾ [الأحقاف: ١٢]

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا (٩١) ﴾ [الأنعام: ٩١]

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ (٤) ﴾

[آل عمران: ٢-٤]

تلك هي الصورة القرآنية، التي صنعت وصبغت الثقافة الإسلامية تجاه أنبياء اليهودية وشريعتها وكتابها.. فهل يستطيع حتى أكثر حاخامات

اليهودية الأرثوذكسية تعصبا، أو أشد علمانييها تحررا أن يجد شيئا من ذلك، أو شبيها بشيء من ذلك فى تصورات اليهود وثقافتهم عن الآخر، وخاصة إذا كان هذا الآخر هو الإسلام والقرآن ورسول المسلمين وأمة الإسلام وحضارتهم وتاريخهم؟!

وعلاوة على هذه الصورة القرآنية عن «**الآخر**» اليهودى.. فإن المسلمين وحضارتهم ودولتهم وتاريخهم وفقه معاملاتهم لم يقفوا بهذه الصورة عن الآخر اليهودى عند حدود دفتى القرآن والأفكار المجردة والنظريات الفلسفية.. وإنما وضعوها فى الممارسة والتطبيق، منذ عصر النبوة.. وعبر تاريخ حضارة الإسلام..

ففى دستور دولة النبوة ـ الدولة الإسلامية الأولى ـ التى قامت بالمدينة المنورة عقب هجرة الرسول ﷺ، إليها من مكة [سنة ١هـ/سنة ٦٢٢م].. نجد مواد هذا الدستور ـ الذى اشتهر فى مصادر التاريخ الإسلامى بـ«**الصحيفة.. والكتاب**» ـ نجد مواد هذا الدستور تبلغ اثنتين وخمسين مادة.. ونجد الحديث فيها عن اليهود فى أربع عشرة مادة.. وفى هذه المواد تقنين لدمج اليهود فى رعية الدولة، واعتبارهم «**أمة مع المؤمنين**» ـ المهاجرين والأنصار ـ، وتقنين المساواة بينهم وبين المؤمنين فى الحقوق والواجبات.. مع تقنين حقهم الكامل فى الاعتقاد الدينى الذى يختلفون فيه مع الإسلام والمسلمين.. فنقرأ فى هذه المواد الدستورية أرقى صور التقنين للاعتراف بالآخر، ومساواة الأقلية للأغلبية.. وتقرير التعددية الدينية فى رعية الدولة الواحدة.. نقرأ:

«.. ويهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. مواليهم وأنفسهم.. وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغ ـ [يُهْلِك] ـ

إلا نفسه وأهل بيته.. ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصَر عليهم.. ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.. على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم..»[1].

بهذه الصفحة الشديدة الإشراق والتألق فتح الإسلام كتاب العلاقة بالآخر اليهودى، عندما قننت الدولة الإسلامية الحرية الدينية، والتعددية الدينية، والمساواة فى حقوق المواطنة، فى داخل الأمة الواحدة والدولة الواحدة..

وحتى بعد نقض اليهود العبرانيين لعهودهم مع رسول الله ﷺ، والدولة الإسلامية.. وخيانتهم العظمى للمسلمين إبان ذروة الحصار والقتال فى غزوة الخندق - الأحزاب - وفى أشد اللحظات القتالية حرجا، عندما زاغت أبصار المسلمين المحَاصَرين.. وبلغت القلوب الحناجر، وظن الناس بالله الظنون!!

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١)﴾ [الأحزاب: ١٠-١١]

فى هذه اللحظات الأكثر حرجا خان اليهود دولة الإسلام، ونقضوا عهودهم مع المسلمين، وتعاونوا - متآمرين - مع جيش الشرك المحاصر للمسلمين فى المدينة المنورة..

---

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص١٧-٢١. جمعها وحققها: د. محمد حميد الله. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

ثم تواصلت خياناتهم، ومساعيهم لجمع كلمة الشرك والوثنية ضد التوحيد الإسلامى ودولته وأمته، عارضين ثمار مزارع خيبر على قبائل الشرك كى تأتى فتقضى على دولة الإسلام.. بل لقد ذهبوا - إبان هذه المساعى - إلى الحد الذى شهدوا فيه - وهم أهل كتاب - أن الشرك والوثنية أصح وأفضل من التوحيد الذى جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين!!.. فعندما سألهم مشركو قريش:

- يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟.. كانت إجابة يهود خيبر:

- بل دينكم خير من دينه، فأنتم أولى بالحق!..

وفى ذلك نزل قول الله، سبحانه وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) ﴾ [النساء: ٥١]

وحتى بعد هذا الذى صنعوه.. لم يغير المسلمون الموقف الإسلامى من الآخر اليهودى.. لقد أمَّنوا قاعدة الدولة الإسلامية، بإجلاء الخونة عن هذه القاعدة.. ثم تركوا أبواب المدن الإسلامية والولايات الإسلامية مفتوحة أمام اليهود، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.. فعادوا للعيش فى مدينة القدس - عقب فتح الإسلام لها - بعد أن كانوا مطرودين منها.. وأحسنت إليهم الدولة الإسلامية، على حين كان الاضطهاد واللعن والاحتقار والطرد والقتل من نصيبهم فى مختلف الحضارات والدول غير الإسلامية التى عاشوا فيها..

لكن «**النزعة العنصرية**» التى جعلتهم يحوّلون اليهودية عن روح الدين الإلهى إلى «**نسق فكرى عنصرى**»، قد جعلتهم يرفضون الآخر، كل الآخر، على مر تاريخهم الطويل.. لقد انحرفوا باليهودية إلى العنصرية، ثم أخذوا يتغذون من هذه اليهودية التلمودية العنصرية، فغدوا النموذج الأول فى رفض كل الآخرين!..

فبعد أن زعموا احتكارهم - بحكم «**الاسم**» و«**الولادة**» - لمرتبة ومنزلة «**شعب الله المختار**»، و«**أبناء الله وأحبائه**»، حتى مع قتلهم لأنبياء الله، ونقضهم عهود الله ومواثيقه.. زعموا احتكارهم الجنة، دون الآخرين:

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ [البقرة: ١١١]

والقرآن الكريم، بعد أن ينفى مزاعم احتكار اليهود والنصارى للنجاة الأخروية، رغم أنهم قد انحرفوا عن شرط هذه النجاة، يقرر أن هذه النجاة ليست احتكارا لجنس بعينه أو طائفة بعينها، وإنما هى مفتوحة الأبواب لمن أوفى بعهد الله وتوافرت فيه شروط هذه النجاة، فيقول فى سياق الآية السابقة، وبعدها مباشرة:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾ [البقرة: ١١٢]

أما فى الدنيا، فلقد التزم اليهود موقف «**الكيل بمكيالين**»، منذ انحرافهم عن شريعة موسى عليه السلام، واستبدال الشريعة العنصرية التى

كتبوها فى التلمود بالشريعة الموسوية.. فجعلوا قيم الشريعة وعدلها وإنصافها احتكارا لطوائفهم ـ التى ظلت عبر التاريخ قلة عددية ضئيلة بالنسبة للأمم والشعوب ـ وهم الآن لا يبلغون الخمسة عشر مليونا بينما تعداد البشرية قد بلغ ستة مليارات! ـ.. جعلوا قيم الشريعة وعدلها وإنصافها احتكارا للمعاملات فيما بينهم هم، واستباحوا وأباحوا كل المحرمات والفواحش والموبقات ـ حتى التى حرّمتها شريعتهم ـ فى التعامل مع الآخرين.. كل الآخرين..

وإذا كان البعض يشكك فى **«رواية»** كتاب [بروتوكولات حكماء صهيون]، الطافح بتقنين سياسة الكيل بمكيالين، فإن الممارسات التاريخية والعملية لليهود مع الآخرين ـ الأغيار ـ قد كانت تجسيدا لهذه السياسة.. فالربا، الذى تحرمه الشريعة الموسوية، هم يحرمونه فيما بينهم فقط، بينما أوجبوه واحترفوا إقامة مؤسساته وممارسة أبشع أنواعه مع الآخرين!.. وكذلك الحال مع أخلاقيات وقيم الكذب.. والسرقة.. والقتل.. والزنا.. والخداع.. ونقض العهود.. حتى غدا ذلك **«سنة متبعة»** فى تعاملهم مع الآخرين ـ الأغيار ـ.. وصدق الله العظيم عندما يصور هذا الموقف اليهودى ـ موقف يهودية التلمود ـ من الآخرين، فيقول:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [آل عمران: ٧٥]

﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) ﴾

[البقرة: ١٠٠]

لقد تقدموا فى العداء للآخر الإسلامى حتى على المشركين:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾

[المائدة: ٨٢]

وإذا كان التلمود - الذى جعلوه شريعتهم بعد نقضهم وتحريفهم للشريعة الموسوية - طافحا بسياسات وتشريعات **«الكيل بمكيالين»**، التى صارت ديدنهم عبر التاريخ.. فلعل شهادة واحد من شجعان معاصريهم تقيم الدليل على أن هذا التاريخ مع الأغيار كان ولايزال السنة المتبعة لليهودية التلمودية والعنصرية اليهودية حتى كتابة هذه السطور.

ففى كتاب **«إسرائيل شاحاك»** [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود](١) حديث موثق عن:

*** حرمة الدم اليهودى.. وإهدار دماء الأغيار.. وإبادتهم:**

«اليهودى الذى قتل غير اليهودى مذنب فقط بخطيئة ضد شرائع السماء، التى لا تعاقب عليها المحكمة، أما التسبب فى موت غير اليهودى بطريقة غير مباشرة فلا يعتبر خطيئة أبدا.. وإذا وقع القاتل غير اليهودى تحت سلطة التشريعات القضائية اليهودية يجب إعدامه، سواء كانت الضحية يهودية أو لا. ولكن إذا لم تكن الضحية يهودية، واعتنق القاتل اليهودية فلا يعاقب..»:

«ولقد استخلص العديد من المعلقين الحاخاميين النتيجة المنطقية لهذا **«الالتزام بالهالاكاه»** - الشريعة - وهى **إمكانية قتل جميع غير اليهود المنتمين**

---

(١) ترجمة: حسن خضر. طبعة سينا للنشر. القاهرة سنة ١٩٩٤م

إلـى شـعب عـدو، أو حتى ضـرورة قتلهم. ويجرى الترويج العلنى لهذه الفكرة منذ سنة ١٩٧٢م لتـوجـيـه الجنـود الإسـرائيليين المتدينين. وأول نـصـيحـة رسـمية مـن هـذا النـوع جاءت فى كـراس نشـرته قيادة المنطقة الوسطى فى الجـيش الإسـرائيلى - التى تقـع الضـفـة الغـربيـة تحـت سـلطتـهـا - يقـول الحـاخام المسـئول - الحاخام العقيد أ. فيدان (زيميل) - فى هذا الكراس: **«فى حـالة احتكـاك قواتنا بمدنيين خـلال الحرب، أو خلال مطاردة حـامية، أو غارة، إذا لم يتوفر دليل بعدم إلحاقهم الأذى بقواتنا هناك إمـكانية لقتلهم، أو حتى ضـرورة للقيام بذلك حسب الهالاكاه.. بل تحض الهالاكاه على قتل حتى المدنيين الطيبين..»!**

ولقد أرسل الجندى **«موشى»** رسالة إلى حاخامه **«شمعون وايزر»**، قال له فيها:

«لقد جرت فى وحدتى مناقشة لفكرة **«طهارة السـلاح»، ومـا إذا كـان من الجـائز قـتل العربى الأعزل من السـلاح، أو النسـاء والأطفـال؟ أو حتى مـا إذا كان علينا الانتقام من العرب؟**. وقد أجاب كل واحد حسب فهمه الخاص، ولم أستطع التوصل إلى إجابة حاسمة. **هل نعامل العرب مثل العماليق، أى نقتلهم حتى نستأصل ذكراهم فى الأرض؟ «ولتمح ذكرى العماليق من تحت السماء»** - [تثنية: ٢٥، ٩] - **أم نقوم بما يحدث فى الحرب العادلة التى يقتل فيها الإنسان الجنود فقط؟.. وهل يجوز لى تقديم الماء لعربى يستسلم؟..»**

ولقد رد الحاخام **«شمعون وايزر»** على الجندى **«موشى»**، برسالة جاء فيها:

«سأنقل لك بعض أقوال الحكماء، طيب الله ذكراهم، وأفسرها:

الحرب لدى غير اليهود ذات قوانين خاصة، مثل قوانين اللعب، كرة القدم أو السلة، لكن الحرب كما يقول حكماؤنا، طيب الله ذكراهم، لا تعنى بالنسبة لنا لعبة، بل ضرورة حيوية، واستنادا إلى هذه المقاييس فقط ينبغى التفكير حول كيفية القيام بها..

إن الحاخام شمعون تعوّد القول: «**أفضل غير اليهودى - اقتلوه - وأفضل الأفاعى - هشموا رأسها -..**» هذه هى قاعدة «**طهارة السلاح**» - حسب الهالاكاه - وليس حسب المفهوم الأجنبى الذى تسبب بوقوع العديد من الخسائر اليهودية..»

ولقد أجاب الجندى «**موشى**» على رسالة الحاخام.. فقال:

«تلقيت رسالتك.. وفهمتها على النحو التالى:

لا يسمح لى فى زمن الحرب بقتل كل عربى أو امرأة أصادفهما وحسب، بل من واجبى أيضا القيام بذلك... وإذا تحدثت عن نفسى فإن من واجبى قتلهم حتى إذا نجم عن ذلك مشكلة مع القانون العسكرى. وأعتقد أن فكرة «**طهارة السلاح**» هذه يجب تعميمها على المعاهد التعليمية.. كى يكوّن الناس رأيا بهذا الصدد، ولا يضلوا فى متاهة «**المنطق**»، خاصة حول موضوع كهذا، ويجب شرح هذه الفكرة والطريقة التى تمارس بها.. لذا أرجو أن تنشط فى هذا الموضوع كى يعرف جنودنا موقف أسلافهم بوضوح كامل».

وبناء على هذا «**الفكر**».. «ففى جميع الحالات التى قتل فيها يهود من الجيش، أو منظمات شبه عسكرية، عربا غير محاربين، وبينها حالات قتل جماعية، مثل كفر قاسم سنة ١٩٥٦م، أطلق سراح القتلة، أو تعرضوا

لأحكام بالغة الرأفة، وحكم عليهم بأحكام غالبا ما يفرج عنهم قبل نفاذها، مما يجعل تلك الأحكام وكأنها لم تصدر أصلا..»(١).

هذا عن إهدار الشريعة التلمودية ـ الهالاكاه ـ دماء الأغيار ـ غير اليهود ـ حتى غير المحاربين.. وحتى النساء.. والطيبين من الناس!.. **فالمنطق ـ عند هذه اليهودية التلمودية ـ هو متاهة وضلالة لا تليق باليهود!!**..

● **وإبادة الأغيار فى أرض إسرائيل:**

«إن وصايا مثل: **«لن تترك حيا أى شىء يتنفس»** ـ [تثنية: ٦٠، ١٦] ـ قد تحولت إلى **«محاضرة تربوية»** للجنود الإسرائيليين الذين يُستدعون إلى الخدمة فى قطاع غزة، يقال لهم فيها: **«إن الفلسطينيين مثل العماليق»**.. ولقد استشهد حاخام إسرائيلى مرموق ـ الحاخام **«شاؤول يسرائيلى»** ـ بالآيات التى تحض على إبادة الميديين ـ [سفر الأعداد: ٣١، ١٣ـ٢٠] ـ وخاصة الآية ١٧: **«والآن اقتل كل ذكر بين الصغار، وكل امرأة عرفت رجلا ضاجعها» ـ [لاحتمال حملها جنينا!!] ـ لتبرير مجزرة «قبية».. وحقق هذا الرأى والاستشهاد انتشارا واسعا فى الجيش الإسرائيلى»**(٢).

«فالمبدأ التلمودى ـ بالنسبة لغير اليهود ـ ينص على عدم إنقاذهم، رغم تحريم قتلهم صراحة. ويعبر التلمود نفسه عن هذا المبدأ على النحو التالى: **«لا يجب إخراج غير اليهود من بئر، أو دفعهم [فى البئر]..»**

ويفسر موسى بن ميمون [٥٢٩ـ٦٠١هـ/ ١١٣٥ـ١٢٠٤م] ـ ذلك الذى فتحت الدولة الإسلامية أمامه الأبواب ليكون طبيب صلاح الدين الأيوبى

---

(١) إسرائيل شاحاك [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ص١٣٢ ـ ١٤٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٥، ١٦٦.

[٥٣٢ـ٥٨٩هـ/ ١١٣٧ـ١١٩٢م].. وفتحت أمامه الحضارة الإسلامية الأبواب ليكون واحدا من فلاسفتها ـ يفسر موسى بن ميمون هذا المبدأ التلمودى فى التلخيص الذى وضعه للتلمود، والذى أصبح المرجع المعتمد لليهودية فى الشريعة التلمودية.. فيقول: «**يجب ألا نتسبب بقتل غير اليهود، الذين لسنا فى حالة حرب معهم، ولكن يحظر إنقاذ حياتهم إذا كانوا على مشارف الموت..**»(١)

فالإبادة لغير اليهود واجبة فى حالة الحرب ـ حتى ولو كانوا نساء أو أطفالا أو أناسا طيبين غير محاربين.. أما فى حالة السلم فمحظور إنقاذ حياة أى من هؤلاء الأغيار إذا كانوا على مشارف الموت!!

● **وعلاج المريض اليهودى.. وتحريم علاج المريض غير اليهودى:**

«لأن الشريعة ـ التلمودية ـ تقول: «**لا تهمل دم أخيك. وغير اليهودى ليس أخا..».. لذلك، يحظر على الطبيب اليهودى، خصوصا، معالجة غير اليهودى.. فعلاجه حرام، حتى لو كان مقابل أجر.. ولكن إذا كنت تخشاه أو تخشى عداوته فعالجه بأجر، ويحرم عليك القيام بذلك دون أجر**».

«**ومن المسموح تجريب عقار على وثنى ـ [أى غير يهودى] ـ إذا كان ذلك يخدم غرضا معينا..**»(٢).

«ولقد أفتى الحاخام «**حاتام سوفير**» ـ حاخام «**برسبرغ**» الشهير ـ (براتسلافيا) ـ المتوفى سنة ١٨٣٢م ـ «بأن الأغيار الوثنيين ـ من المسلمين والمسيحيين ـ الذين يعبدون آلهة أخرى، يجب عدم دفعهم إلى البئر أو

---

(١) المصدر السابق، ص١٤١.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٢، ١٤٣.

إخراجهم منه، بل ويشبهون العماليق أيضا، لذلك **فإن المبدأ التلمودى الداعى لعدم زيادة نسل العماليق ينطبق عليهم. على هذا الأساس، لا يجوز، من حيث المبدأ، مساعدتهم. ولكن يجوز علاج الأغيار ومساعدتهم خلال المخاض إذا كان لديهم أطباء وقابلات من بنى جلدتهم، ويستطيعون الاستعانة بهم بدلا من اليهود..»**[1]!!

«ولقد صيغت هذه المبادئ الشرعية - الهالاكية - فى كتاب صغير - بالإنجليزية - عنوانه [الشريعة الطبية اليهودية] - نشرته المؤسسة الإسرائيلية المرموقة «موساد حاراف كوك»، وذلك استنادا إلى فتوى الحاخام «إليعازر يهودا والدينبرغ» - كبير قضاة محكمة الناحية القضائية فى القدس - وفيه:

«بالنسبة للأغيار - حسب المبادئ المنصوص عليها فى التلمود ومفاهيم الشريعة اليهودية - **يحظر انتهاك السبت لإنقاذ حياة مريض غير يهودى فى حالة بالغة الخطر، ويحظر توليد المرأة غير اليهودية يوم السبت...»**

ويقول موسى بن ميمون - الذى تمتع بأمن الحضارة الإسلامية - : **«يجب عدم مساعدة المرأة غير اليهودية على الوضع يوم السبت، حتى مقابل أجر، ويجب ألا يخشى الإنسان اليهودى العداوة، حتى لو لم تشمل هذه المساعدة أى انتهاك للسبت»**!!..

«ولقد استثنى الحاخام «يوئيل سركيس» - أحد أهم حاخامات بولندا - فى القرن السابع عشر - ومؤلف كتاب «بيت حداش» - استثنى «علاج العُمَد

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٠.

وصغار النبلاء والأرستقراطيين يوم السبت خوفا من إثارة عداوتهم التى تحمل نوعا من الخطر. ولكن، فى حالات أخرى، خاصة عندما يسهل خداع غير اليهودى بالمراوغة، فإن الطبيب اليهودى «يرتكب خطيئة لا تغتفر» إذا عالجه يوم السبت..»

أما ابن ميمون، الذى عاش فى أمن وأمان الحضارة الإسلامية والدولة الإسلامية، فلقد حرم ذلك بإطلاق،غير عابئ بالعداوة.. لأنها كانت غير موجودة فى مجتمع الإسلام والمسلمين!..(1)

● والعفة مع المرأة اليهودية.. والزنا بنساء الأغيار:

«فى دائرة المعارف التلمودية: «من يقيم علاقة جنسية مع زوجة غير اليهودى لا يتعرض لعقوبة الموت، لأنه مكتوب: «زوجة أخيك» لا «زوجة الغريب». «وإذا ضاجع اليهودى امرأة غير يهودية، سواء كانت ابنة ثلاث سنين أو امرأة بالغة، سواء كانت متزوجة أو عزباء.. يجب قتلها كما هى الحال بالنسبة للبهيمة، لأن اليهودى يتعرض للمشاكل بسببها.. ومن المفترض أن جميع غير اليهوديات عاهرات..»(2)!!

● وتحريم سرقة اليهودى.. واستحلال سرقة الأغيار:

«السطو (مع استخدام العنف) محظور بشدة إذا كان الضحية يهوديا، أما السطو على غير اليهود فغير محظور إذا كانوا تحت حكمنا، ويحظر عندما لا يكون الأغيار تحت حكمنا..»(3)

---

(1) المصدر السابق، ص١٥٣، ٤٠، ٤١، ١٤٦، ١٤٧.

(2) المصدر السابق، ص١٥٦، ١٥٧.

(3) المصدر السابق، ص١٦٢.

«وإذا عثر اليهودى على شىء يحتمل أن يكون صاحبه يهوديا، فإنه يُحض على بذل جهد كبير لإعادته، وذلك بإعلان العثور عليه على الملأ. خلافا لذلك، يجيز التلمود والمراجع الحاخامية المبكرة لليهودى الذى يعثر على شىء فقده غير اليهودى الاحتفاظ به لنفسه، بل ويمنعه، فعليا، من إعادته لصاحبه»!!(١)

● تحريم النصب والخداع لليهودى.. وإباحة ذلك مع الأغيار:

«لا يجوز النصب على اليهودى، سواء من خلال شراء أو بيع أشياء بسعر غير معقول. لكن ذلك لا ينطبق على غير اليهودى، لأنه مكتوب: «لا يسلب الإنسان شقيقه».

«وتعتبر ممارسة أى نوع من الخداع لليهودى من الكبائر، **أما لغير اليهود فلا يجوز ممارسة الخداع بطريقة مباشرة. ويسمح بالخداع غير المباشر، إلا إذا نشأ احتمال أن يتسبب بإثارة العداء لليهود، أو إهانة الديانة اليهودية..»(٢)!!**

● وخداع الرب من جانب الحاخامات:

«.. وخداع الرب، فى المقام الأول، من جانب الحاخامات، الذين يتصورون أنفسهم أكثر مهارة منه.. فإله اليهودية الكلاسيكية أقرب إلى «جوبيتر»، الإله الرومانى الذى خُدع أيضا من جانب عابديه..»(٣)

وصدق الله العظيم إذ يقول فى قرآنه الكريم:

---

(١) المصدر السابق، ص١٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٦١.

(٣) المصدر السابق، ص٧٨، ٧٩.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة: ٨-١٦]

● وتحريم الربا بين اليهود.. ووجوبه عند إقراض الأغيار:

«إن تقديم قرض بلا فائدة ليهودى يعتبر عملا من أعمال الإحسان، ولكن فى حالة المقترض غير اليهودى هناك إلزام باستخلاص أكبر قدر ممكن من الفائدة».

«وفى [كتاب التربية] - وهو من أوسع الكتب انتشارا فى إسرائيل - بالمدخل ٥٤٥ -:

«إننا نُؤمر بأخذ الفائدة من غير اليهود عندما نقرضهم المال، ولا يجب أن نقرضهم دون فائدة، وأساس هذا الالتزام الدينى أننا يجب ألا نقوم بأى عمل من أعمال الشفقة إلا تجاه الناس الذين يعرفون الرب ويعبدونه، وعندما نحجم عن أعمال الشفقة تجاه بقية الناس، ونقدمها فقط للفئة الأولى، فهذا

اختبار من الرب.. وإن ثواب الرب لنا عندما نحجب الشفقة يساوى ثوابه لنا عندما نقوم بها تجاه أبناء شعبنا..»(١)

● **وتحريم بيع العقارات - فى أرض إسرائيل - لغير اليهود:**

«فى أرض إسـرائيل - التى تشـمل فلسطين وسـيناء والأردن ولبنان وسوريا وقبرص وأجزاء من تركيا - تمنع الهالاكاه - الشريعة - اليهودى من بيع العقارات غير المنقولة - كالحقول والبيوت - للأغيار.. وتسمح بتأجير بيت فى أرض إسرائيل لغير اليهودى، بشروط، منها:

أولاً: ألا يُستخدم للسكنى، ولكن لأغراض أخرى، مثل التخزين.

وثانياً: ألا تُؤجر ثلاثة بيوت أو أكثر من المجاورة للبيت المعنى.

وثالثاً: أن يكون اليهود فى المنفى.

ورابعاً: أن يكون الأغيار أقوى من اليهود.

وذلك حتى تكون إقامة الأغيار فى أرض إسرائيل مؤقتة.. ولأنه لا يجوز السماح ببقاء وثنى واحد بيننا، حتى لو كانت إقامته مؤقتة، أو كان تاجرا جوّالا.. لأنه مكتوب: «لن يسكنوا أرضك» - [سفر الخروج: ٢٣، ٣٣] -..»(٢)

● **وتحريم ولاية الأغيار على اليهود:**

«حسب الهالاكاه - الشريعة - يجب ألا يسمح اليهود (إذا كان باستطاعتهم) لغير اليهودى بتنسم أى منصب يمارس منه سلطة مهما كانت ضئيلة على اليهود»(٣)

---

(١) المصدر السابق، ص١٦٠، ١٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٣، ١٦٤.

(٣) المصدر السابق، ص١٥٧.

● **وإسقاط أهلية الأغيار:**

«ويفترض بغير اليهود أنهم يكذبون بالفطرة، ولا يحق لهم الإدلاء بشهادتهم أمام المحاكم»(١)

● **وتحريم مهاداة الأغيار:**

«**يمنع التلمود تقديم هدية لغير اليهودى.** لكن مراجع اليهودية الكلاسيكية اختلفت على هذه المسألة، لأن من السائغ تبادل الهدايا بين رجال الأعمال، ولذلك وضعت قاعدة فحواها: **أن اليهودى قد يقدم هدية لأحد معارفه غير اليهود، شريطة ألا يعتبرها هدية، بل استثمارا ينتظر أن يدر عليه مردودا من نوع ما..**»(٢)

● **ولعن الأغيار ـ لأنهم كلاب ـ والدعاء عليهم بالدمار:**

«إذا شاهد اليهودى المتدين حشدا من اليهود ينبغى أن يشكر الله، **أما إذا شاهد حشدا من غير اليهود فينبغى أن يلعنهم.. ويحض التلمود اليهودىَّ الذى يمر بجوار بناية مأهولة غير يهودية أن يدعو الرب لتدميرها، وإذا كانت مدمرة، فينبغى أن يشكر رب الانتقام.. ولقد أصبح من العادات الشعبية المألوفة البصق ثلاث مرات عند مشاهدة كنيسة أو صليب، مع ذكر الآيات التوراتية التى تشتم الأغيار «فلتحتقرهم كليا وتمقتهم» ـ [سفر التثنية: ٧، ٢٦] ـ .. كما لا تجيز التعاليم الثناء على غير اليهود أو على أعمالهم، إلا إذا أسفر ذلك عن ثناء أكبر على اليهود والأشياء اليهودية..**

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٩.

وبعد عودة الكاتب «عجنون» من «استوكهولم» ـ وتسلمه جائزة نوبل فى الآداب ـ أثنى ـ فى مقابلة مع راديو إسرائيل ـ على الأكاديمية السويدية، لكنه سارع للقول: «لم أنس بأنه لا يجوز الثناء على الأغيار، ولكن يوجد الآن سبب خاص لثنائى عليهم». وتُحظر مشاركة اليهود فى الاحتفالات الشعبية لغير اليهود، إلا إذا كان الامتناع يثير العداوة، وفى هذه الحالة لا يسمح إلا بإبداء «أدنى حد ممكن» من الابتهاج.. وتُمنع إقامة صداقة إنسانية بين اليهودى وغير اليهودى..

«ويُحظر على اليهودى المتدين شرب أى نبيذ شارك فى إعداده غير اليهود بأى طريقة كانت، كما أن النبيذ فى زجاجة مفتوحة، حتى لو كان من صنع اليهود، يصبح محظورا إذا لمس غير اليهودى الزجاجة أو مرّ بيده فوقها.... وإذا لمس المسيحى زجاجة النبيذ ينبغى سكبها على الأرض، أما إذا لمسها المسلم فيمكن بيعها أو تقديمها كهدية، وفى الحالتين يحظر على اليهودى شربها.. وينطبق ذلك أيضا على الملحدين غير اليهود، لكنه لا ينطبق على الملحدين اليهود..»

«وكلمة «نفس» تعنى اليهودى، ويستثنى منها غير اليهود والكلاب صراحة.. ويتعلم اليهودى الأرثوذكسى منذ شبابه الباكر، من خلال دراساته المقدسة، أن غير اليهود يقارنون بالكلاب، وأن الثناء عليهم خطيئة..»[(١)]!!

● وتعميم اللعن حتى على الأنبياء:

«ينص التلمود على أن عقوبة يسوع فى الجحيم هى إغراقه فى غائط يغلى.. وفى «مشناة توراة» ـ [الشروح الشفوية للتوراة] ـ التى دونها موسى

---

(١) المصدر السابق، ص١٦٨ـ١٧١.

ابن ميمون، ولخص فيها التلمود ـ دعوة إلى أن يقول اليهودى ـ كلما سمع اسم يسوع ـ : «أهْلَكَ الله الاسم الشرير.. و: فليبلى الاسم الشرير: يسوع الناصرى وتلامذته..»

«وفى التلمود أمر لليهود بإحراق أى نسخة من الإنجيل، علانية إذا أمكن.. وفى الثالث والعشرين من مارس سنة ١٩٨٠م أحرقت مئات من نسخ الإنجيل، بصورة احتفالية، فى القدس، تحت رعاية المنظمة الدينية «يادلعاخيم» والتى تتلقى المعونات المالية من وزارة الشئون الدينية الإسرائيلية..»(١)!!

● وتعميم اللعن على أموات الأغيار وأمهاتهم:

«ينبغى أن يتلفظ اليهودى المتدين باللعنات إذا مر بجوار مقبرة غير يهودية، بينما يتلفظ بالتبريكات إذا مر بجوار مقبرة يهودية..»

«ومن مقاطع التلمود ـ تلك التى أعيد نشرها فى إسرائيل.. فى طبعة شعبية ـ تحت عنوان «هيرسونوت شاس» ـ والتى يتم تعليمها للأطفال ـ : الأمر لكل يهودى كلما مر بجوار مقبرة أن يدعو بالرحمة إذا كانت يهودية، وأن يلعن أمهات الموتى إذا كانت المقبرة غير يهودية» ـ وفقا لـ [أرميا: ٥٠-١٢] ـ «تخزى أمكم جدا. تخجل التى ولدتكم»(٢)

● واستعباد الأغيار:

«فى [كتاب التربية] ـ الذى أسهمت الحكومة الإسرائيلية بقدر كبير فى نفقات طباعته ـ والذى طبعت منه طبعات عديدة ـ ويعد من أكثر الكتب شعبية فى إسرائيل ـ فى المدخل ٣٢٢ ـ:

(١) المصدر السابق، ص٢٨، ٢٩، ٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٨، ٣٤.

«وجوب إبقاء العبد غير اليهودى عبدا طيلة حياته ـ بينما ينبغى عتق العبد اليهودى ـ وذلك «لأن اليهود أفضل الكائنات البشرية، خلقوا ليعرفوا خالقهم وليعبدوه، ويستحقون الاحتفاظ بعبيد لهم، وإذا لم يكن لديهم عبيد من الشعوب الأخرى، سيضطرون لاستعباد بنى جلدتهم، الذين لن يتمكنوا بهذه الطريقة من خدمة الرب.. وهذا ما تقصده آية: «لن تستعبد إخوتك الذين يتهيئون جميعا لعبادة الرب» ـ [سفر اللاويين: ٢٥، ٤٦] ـ.. «وإن تعبيرات من مثل: إن العبودية هى القَدَر «الطبيعى» لغير اليهود، قد أصبحت قابلة للتداول علانية، وحتى فى التلفزيون، وعلى يد فلاحين يهود يستغلون العمالة العربية.. وحتى الذين يرفضون هذه المفاهيم، يرفضونها سياسيا، ولاعتبارات الجدوى، والمصلحة الذاتية اليهودية، وليس من منطلق إنسانى وأخلاقى.. إذ يرونها مفسدة للمجتمع الإسرائيلى.. وغير ممكنة التطبيق فى الظروف السياسية الراهنة.. ومؤدية إلى عزلة إسرائيل دوليا.. ومن حيث المبدأ فإن جميع الصهاينة تقريبا، وخاصة «اليسار» الصهيونى ـ وهم علمانيون ـ يشتركون، مع المتدينين، فى اعتناق المواقف العميقة المعادية لغير اليهود، التى تعمل اليهودية الأرثوذكسية على تعزيزها فى الوقت الحاضر.. وكل من يعيش فى إسرائيل يعرف كم هى عميقة وشائعة مواقف الكراهية والقسوة تجاه غير اليهود جميعا بين غالبية اليهود الإسرائيليين..»(١)

- **وحتى: إنكار إنسانية الأغيار.. واعتبارهم: شياطين.. وكلابا.. وخنازير.. وحميرا:**

«كان ابن ميمون ينكر استطاعة قطاعات مختلفة من بنى البشر بلوغ القيمة الدينية العليا، والعبادة الحقيقية للرب.. ومن هؤلاء «بعض الترك [أى العرق المغولى] والقبائل الجوالة فى الشمال، والسود، والقبائل الجوالة فى

(١) المصدر السابق، ص١٧٢ـ١٧٥.

الجنوب، ومن يشبهونهم بيننا - [أى فى العالم الإسلامى جيث كان يعيش] - **لأن طبيعتهم مثل طبيعة الحيوان الأبكم، فهم أدنى مرتبة من الكائنات الإنسانية، ومرتبتهم بين الكائنات الحية أدنى من الإنسان، وأعلى من القرد، لأن هيئتهم أقرب إلى الإنسان منها إلى القرد..»**[1]

ومن عقائد **«الحركة الحسيدية»** - التى هى استمرار للصوفية اليهودية.. والتى لديها مئات الآلاف من الأتباع، الذين أحرز بعضهم نفوذا سياسيا كبيرا فى إسرائيل، ويتواجدون بين قادة معظم الأحزاب السياسية، وحتى فى المراتب العليا للجيش -: **«أن كل غير اليهود مخلوقات شيطانية، ليس بداخلها أى شىء جيد على الإطلاق، حتى الجنين غير اليهودى يختلف نوعيا عن الجنين اليهودى، كما أن وجود غير اليهودى مسألة غير جوهرية فى الكون، فقد تشاكل الخلق من أجل اليهود فقط..»**[2]..!!

«والمرأة اليهودية العائدة من حمامها الطقسى الشهرى من أجل الطهارة، يجب أن تحاذر ملاقاة أحد أربعة كائنات شيطانية: أحد الأغيار.. أو خنزير.. أو كلب.. أو حمار. وإذا حدث وقابلت أحدهم يجب أن تعيد الاستحمام مرة ثانية..»[3]..!!

● **وعموم هذه العنصرية حتى عند الملاحدة واليساريين اليهود:**

ولا يحسبن أحد أن هذه العنصرية؛ التى لا نظير لها فى التاريخ البشرى والفكر الإنسانى، قد وقفت عند اليهود المتدينين، الذين يحتكمون إلى المصادر الدينية وإلى فتاوى الحاخامات.. فلقد تحول هذا الفكر **«الدينى»**

---

(١) المصدر السابق، ص٣٦، ٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص٤٠.

(٣) المصدر السابق، ص٥٤.

اليهودى إلى «**ثقافة**» انتمى إليها - تقريبا - كل اليهود، حتى أولئك الذين اختاروا الإلحاد فى الدين، أو انتموا إلى الحركات اليسارية اللادينية.. فكل اليهود - المتدينين والعلمانيين - فى هذه العنصرية الغربية والمتوحشة سواء.. ويشهد على هذه الحقيقة البشعة «**إسرائيل شاحاك**» فيقول:

«إن دراسة الأحزاب الراديكالية والاشتراكية والشيوعية تقدم العديد من الأمثلة حول شوفينيين وعنصريين يهود مُقنَّعين، انضموا إلى تلك الأحزاب لأسباب تتعلق «بالمصلحة اليهودية»، وهم يؤيدون التمييز الموجه ضد الأغيار.. و«الكيبوتس» - وهو مؤسسة عمالية اشتراكية - إنما تمثل مؤسسة عنصرية مغلقة بوجه غير اليهود من مواطنى إسرائيل..»(١)

ورغم أن هذه العنصرية المتوحشة قد كانت السبب الأول بين أسباب النبذ والاحتقار والاضطراب التى حلت باليهود، عبر تاريخهم - وخاصة فى إطار الحضارة الغربية - إلا أن ذلك لم يجعلهم يراجعون هذا الفكر العنصرى.. وإنما زادهم ذلك استمساكا بالعنصرية.. ونفاقا يخفون به هذه العنصرية عن أعين الرقباء فى فترات الاستضعاف.. مبررين هذا النفاق والكذب بالعديد من المبررات..

وعن هذه الحقيقة يقول «**إسرائيل شاحاك**»:

«إن اليهود يكذبون بدافع الوطنية، اعتقادا منهم أن من واجبهم الكذب لصالح مصلحة يهودية. أولئك كذبة وطنيون، ترغمهم نفس الوطنية على الصمت عندما يشاهدون التمييز والقمع ضد الفلسطينيين..»(٢)!!

---

(١) المصدر السابق، ص٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص٤٥.

«وأمام رقابة الدول الأوربية على المطبوعات اليهودية.. فإن التعبيرات التلمودية، مثل «غيرى» و«لا يهودى» و«غريب» ـ التى تظهر فى المخطوطات والطبعات الأولى ـ استبدلت بمصطلحات مثل «وثنى» و«همجى» و«كنعانى» و«سامرى» و«عربى» و«مسلم» ـ يشماعيلى ـ و«مصرى».. لكن القارئ اليهودى يعرف أنها مصطلحات ملطفة للتعبيرات القديمة.. وفى نفس الوقت جرى توزيع قوائم بالمحذوفات التلمودية، على هيئة مخطوطات، تشرح التعبيرات الجديدة وتشير إلى المحذوفة..»!!

«وقد استخدم بعض الحاخامات، بعد الاحتلال الإنجليزى للهند، حيلة تفيد أن أى إشارة تثير الغضب أو تحط من الكرامة يستخدمونها، يقصد بها الهنود فقط. وفى مناسبات أخرى، تمت الإشارة إلى السكان الأصليين فى أستراليا باعتبارهم المقصودين بتلك التعبيرات.. أما فى إسرائيل فلقد نشرت تلك المحذوفات التلمودية فى طبعة رخيصة بعنوان «هيرسونوت شاس» ليقرأها الجمهور، ويتم تعليمها للأطفال اليهود..»(١)!!

وإذا كان اجتماع اليهود على هذا الكذب والنفاق هو من كبائر العجائب.. فإن الغريب والعجيب أن يتبلور تيار عريض فى الثقافة الغربية ـ من غير اليهود ـ يبرر لليهود هذا الكذب وهذا النفاق، حتى ليجعله «مذهبا» يدعون إليه.. وموقفا يدافعون عنه.. وعن هذا التيار الغربى، الذى يبرر هذا الكذب والنفاق، يقول **«إسرائيل شاحاك»**:

«ويعتنق كثير من غير اليهود (بما فى ذلك رجال الدين المسيحيون وبعض العوام المتدينين وكذلك بعض الماركسيين فى جميع المنظمات

(١) المصدر السابق، ص٣٣، ٣٤.

الماركسية) الرأى الغريب القائل: إن أحد أشكال **«التكفير»** عما أصاب اليهود من اضطهاد، تعنى عدم الحديث عن الشر الذى يمارسه اليهود أنفسهم، بل المشاركة فى **«الكذب الأبيض»** حول اليهود. كما أن الاتهام الفج بالعداء للسامية الموجه لأى شخص يحتج على التمييز ضد الفلسطينيين، أو يظهر أى حقيقة حول الديانة اليهودية، أو الماضى اليهودى، تتناقض مع **«الصورة المتفق عليها»** يأتى محملا بقدر أكبر من العداء من جانب **«أصدقاء اليهود»** أكثر مما يأتى من جانب اليهود أنفسهم..»[1]

* * *

وأمام هذه العنصرية المتوحشة، التى صبغت فكر اليهود وممارساتهم عبر تاريخهم الطويل.. يتساءل المرء عن **«المرجعية»** و**«الثابت الفكرى»** الذى حافظ على بقاء هذه العنصرية ضد الأغيار على مر ذلك التاريخ؟..

وفى الإجابة على هذا التساؤل، نجد كل الأصابع تشير إلى الصورة العنصرية التى تحولت إليها اليهودية، كدين:

- فأسفار التوراة قد أعيدت كتابتها فى مرحلة السبى البابلى.. فأصابها قدر كبير من روح الحقد على الأغيار، والتعصب الأعمى ضد جميع هؤلاء الأغيار..

- والشروح والتعليقات والحوارات التى مثلت التلمود البابلى - والذى غدا أكثر محورية فى الفكر والحياة اليهودية من التوراة - قد اصطبغت هى الأخرى بالعنصرية التى كانت طابع تلك المرحلة فى حياة وتاريخ اليهود..

---

(١) المصدر السابق، ص٤٥.

- وإذا كانت ضخامة مجلدات التلمود، وأساليب تدوينه، قد جعلت استيعابه مستحيلا فى الحياة اليهودية ذاتها، وجعلت الرجوع إليه نادرا.. فإن تلخيصات التلمود وتفسيراته - وفى مقدمتها **«مشناة توراة»** - أى **«تثنية التوراة»** - الذى كتبه موسى بن ميمون - والذى حل - عمليا - محل التلمود - قد استصفى ما فى التلمود من عنصرية وعداء متوحش ضد الأغيار.. لقد أصبح هذا الكتاب هو **«ديوان العنصرية اليهودية»**، كما أصبح موسى بن ميمون أعظم فلاسفة اليهودية بإطلاق، حتى لقد شاع عندهم فى وصف مكانته قولهم: «لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلا موسى»!(١)

لقد تحولت اليهودية عن طابعها الحقيقى، وانقلبت على روح الدين التوحيدى الذى جاء به موسى عليه السلام.. فغدت **«ديانة وثنية»** خاصة بالعنصر اليهودى.. وأصبح إلهها **«يهوه»** إلها لليهود وحدهم - وللشعوب الأخرى آلهتها الخاصة بها - .. كما نسخت اليهودية التلمودية اليهودية التوراتية وحلت محلها.. ثم انتهت هذه الديانة المخترعة إلى أن أصبحت **«ديانة بيولوجية - عنصرية»**، فاليهودى - فى عرفها وتعريفها - هو المولود من أم يهودية.. يصبح - بسبب هذه الولادة - يهوديا.. ومن شعب الله المختار، حتى ولو كان ملحدا، أو حتى ابن زنى!!.. ووفق هذا «المعيار البيولوچى» لا يعد نبى الله سليمان، عليه السلام يهوديا، فأمه كانت حيثية.. وكذلك أبوه داود، عليه السلام، فأم جدته كانت مؤابية.. بينما يصبح الصهاينة الملاحدة من شعب الله المختار!!

---

(١) د. عبدالوهاب المسيرى [موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية]، جـ٣، ص٣٦٨، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

وعن هذه الحقائق، التى تكشف الوجه الحقيقى لليهودية التى صبغت هؤلاء اليهود بالعنصرية المتوحشة، يقول «**إسرائيل شاحاك**»:

«هناك فى كثير من - إن لم نقل فى كل - أسفار العهد القديم حضور وسلطة لأرباب آخرين معترف بهم صراحة، لكن «يهوه»، أقوى الأرباب، غيور جدا من منافسيه، ويحظر على شعبه عبادتهم. ولا يظهر إلا فى نهاية التوراة فقط، لدى بعض الأنبياء المتأخرين، إنكار لوجود جميع الأرباب ما عدا يهوه»،

«واليهودية الكلاسيكية خلال بضع مئات من سنواتها الأخيرة، كانت بمعظمها بعيدة تماما عن التوحيد الخالص، وهذا ينطبق أيضا على الحقائق المهيمنة فى الأرثوذكسية اليهودية فى الوقت الراهن، وهى استمرار مباشر لليهودية الكلاسيكية. لقد جاء انحطاط التوحيد من خلال انتشار الصوفية اليهودية (القبالاه)، التى تطورت فى القرنين الثانى والثالث عشر، وحققت أواخر القرن السادس عشر انتصارا كاملا تقريبا فى كل مراكز اليهودية.. والكون، حسب (القبالاه)، لا يُحكم من جانب إله واحد، بل من جانب أرباب عدة، ذوى شخصيات وتأثيرات مختلفة، تنبثق من علة أولى بعيدة مبهمة..»[1]

وإذا كانت الوثنية قد أصابت «**اليهودية التوراتية**».. فإن «**اليهودية التلمودية**» قد أوغلت فى الانحرافات أكثر وأكثر.. «**وهناك فكرة مضللة، مؤداها أن اليهودية «ديانة توراتية»، وأن العهد القديم له فى اليهودية نفس المكانة المركزية والسلطة الشرعية التى يحظى بها الإنجيل فى المسيحية.. لكن، فيما يتعلق بالتلمود، وليس التوراة، فإن الكثير من الآيات التوراتية**

---

(١) [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ص٥٠، ٥١.

التى تأمر بالأعمال الدينية والالتزامات «مفهومة» من جانب اليهودية الكلاسيكية والأرثوذكسية فى يومنا هذا بطريقة تختلف عن - وحتى تتناقض مع - معناها الحرفى كما يفهمها قراء العهد القديم، الذين لا يرون إلا النص العادى بصورته الظاهرة فقط.. فالوصية الثانية - من الوصايا العشر - فى التوراة: «لا تسرق» - [الخروج: ٢٠، ١٥] - تُؤخذ كتحريم للسرقة، أى اختطاف شخص يهودى.. بينما تبيح الشريعة التلمودية اختطاف اليهود للأغيار.. وفى عدد لا يحصى من الحالات يتم تفسير تعبيرات مثل «جارك» و«الغريب» أو حتى «الإنسان» بالمعنى الشوفينى الحصرى، أى تعنى اليهود فقط، ولذا فإن العبارة الشهيرة: «بل تحب قريبك كنفسك» - [اللاويين: ١٩، ١٨] - تفسر فى اليهودية الكلاسيكية (واليهودية الأرثوذكسية حاليا) كأمر بأن يحب اليهودى قريبه اليهودى، وليس أى جار آخر.. وإن عبارة «لا تهمل دم جارك» تحولت إلى منع اليهود عموما من إنقاذ حياة غير اليهودى، لأنه «ليس قريبك».. وإن الوصية التى تحض على ترك فضلات الحقل والكَرْم «للفقير والغريب» - [اللاويين: ٩، ١٠] - تفسر كإشارة إلى الفقير اليهودى ومعتنقى الديانة اليهودية فقط..

وهكذا، فاليهود الأرثوذكس الآن عندما يقرأون التوراة، فإنهم يقرأون فى الواقع كتابا مختلفا، بمعانٍ تختلف تماما عن التوراة التى يقرأها غير اليهود..

إن مصدر التشريع لكل ممارسات اليهودية الكلاسيكية (والأرثوذكسية حاليا) والأساس المقرَّر لبنيتها التشريعية هو التلمود، وإذا توخينا الدقة: ما يدعى بالتلمود البابلى، لأن بقية الأدب التلمودى (بما فيها ما يدعى التلمود المقدسى أو الفلسطينى) مجرد تشريعات تكميلية..»[1]

---

(١) المصدر السابق، ص٥٧-٦٣.

تلك هى اليهودية التى نواجهها.. والتى أفرزت هذه العنصرية المتوحشة ضد كل ما ليس بيهودى.. وهى يهودية لا علاقة لها بيهودية موسى عليه السلام.. كما أن هؤلاء اليهود لا علاقة لهم ببنى إسرائيل، الذين عندما تدينوا بيهودية موسى كانوا الجماعة الموحدة، التى فضلها الله، سبحانه وتعالى، على العالمين..

إننا أمام **«يهودية بيولوجية - عنصرية»**، لا علاقة لها **«بالإيمان الدينى»**.. **«وكون الإنسان يهوديا يعتمد - [فى هذه اليهودية] - على الانحدار من سلالة الأم، وليس على الإيمان الفعلى للشخص»**[1] الذى ينتسب إلى هذا **«الدين»**، الذى لا علاقة له **«بالدين»** أى دين!!..

* * *

ولا يحسبن أحد أن حال «اليهودية - التوراتية»، فى موقفها من الآخر، أفضل، ولوحتى قليلاً، من حال هذه «اليهودية - التلمودية».. فالتلمود هو الشروح التى وضعها الأحبار والحاخامات - فى مرحلة السبى وأحقاده - على التوراة، بعد تحريفها، وتحويلها من «التوحيد» إلى «الوثنية»، ومن «الإنسانية - الربانية» إلى «العنصرية - المتوحشة»..

وحتى لا يزعم زاعم أن الفاعل فى الحياة اليهودية - الكلاسيكية والحديثة والمعاصرة - هى «التوراة» وليس «التلمود» وتلخيصاته، وأن إغفال موقف «التوراة» من الآخر، فيه تعمية على حقيقة موقف اليهودية المعاصرة - ومن ثم اليهود المعاصرين - من الأغيار..

---

(١) المصدر السابق، ص٧٧.

حتى لا يحسب أحد ذلك، ولا يزعم أحد هذا، نقدم موقف التوراة من الآخر، كل الآخر وجميعه، وذلك من خلال موقفها من قتال الآخرين..

وحتى نستنطق النصوص حقائق دلالاتها، فإننا نسوق مشهد القتال للآخر فى التوراة مقارنا بهذا المشهد فى القرآن الكريم، وذلك ليرى الناس موقف القرآن من قتال غير المسلمين - هذا القرآن الذى افترى الكثيرون ولايزالون يفترون عندما زعموا ويزعمون أنه قد شرع لانتشار الإسلام بالسيف والعنف والإكراه... ليرى الناس موقف القرآن والإسلام والمسلمين من قتال الآخرين.. وموقف التوراة - وليس فقط التلمود - من قتال الأغيار..

● **لقد جاء القرآن الكريم، على عكس كل الفلسفات والنظريات ومدارس التحليل النفسى والاجتماعى، التى رأت فى القتال والعنف والحرب غريزة أصيلة ولصيقة بالإنسان، وثابتًا أزليًا وأبديًا من ثوابت النفس الإنسانية.. جاء القرآن - على العكس من ذلك كله - ليقرر أن القتال - إنسانيًا ودينيًا - أمر مكروه، وطارئ، واستثناء تفرضه الضرورات.. فإذا حدث وفرضت الضرورات هذا الاستثناء الطارئ، فإن مثله كمثل الجراحات الضرورية والمكروهة، لا يخلو من خير، إذا كانت مقاصده خيّرة، وإذا دفع فسادًا أكثر وأرجح، وإذا وقف عند القدر الذى تحتمه الضرورات، وإذا ضُبطت ممارساته بالشمائل والأخلاقيات الإنسانية والشرعية التى لابد وأن تتحلى بها فروسية هذا القتال..**

نعم.. جاء القرآن الكريم ليقرر هذا المنهاج الإلهى فى قتال المسلمين لمن يجوز قتاله من الآخرين..

- إنه مكروه، تفرضه وتستدعيه الضرورات:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾

[البقرة : ٢١٦]

وفي الحديث النبوي الشريف، يقول رسول الله، ﷺ:

«لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله» - رواه الدارمي -..

- ولا يجوز للمسلمين أن يقاتلوا أحداً ابتداء وفجاءة، فالقتال في الإسلام دفاعي.. ورد للعدوان.. ولا يجوز أن يتجاوز القتال رد العدوان عن المسلمين وديارهم وإسلامهم، سواء في مقاصد العدوان، أو آليات وأدوات صد هذا العدوان:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ [البقرة: ١٩٠]

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾ [البقرة: ١٩٤]

- وهناك حالتان اثنتان حصر القرآن الكريم فيهما جواز أو وجوب قتال المسلمين للآخرين المعتدين:

أولاهما: حالة أن يفتن الآخرون المسلمين فى دينهم، بأن يكرهوهم على الكفر، أو يحولون بينهم وبين حرية الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن..

والثانية: حالة عدوان الآخرين على المسلمين بإخراجهم من ديارهم وأوطانهم، أو المظاهرة والمساعدة على هذا الإخراج من الديار والأوطان..

ولقد تتبعتُ فى إحدى الدراسات التى سبق وأخرجتها ـ منذ أكثر من ربع قرن ـ جميع آيات القرآن الكريم التى جاءت فى «**الإذن**» بالقتال، و«**الأمر**» به، و«**إيجابه**»، و«**الحض والتحريض**» عليه، فوجدتها جميعها فى هذا الإطار لا تتعداه[1].. حتى لقد صار ذلك معياراً عامّاً وحاكمًا لقتال الآخرين فى القرآن والإسلام:

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾

[الممتحنة: ٧-٩]

(١) انظر كتابنا [الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية] ص١٠١-١٢٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

فالأصل، فى العلاقة مع المخالفين والآخرين، هو السلم والمودة والبر والقسط ـ العدل ـ.. أما القتال فإنه طارئ استثنائى، يفرضه عدوان الآخرين على المسلمين بإكراههم وفتنتهم فى دينهم.. أو إخراجهم من الأوطان والديار، بالتهجير والاقتلاع أو بالاستعمار والاحتلال..

ـ وفى هذا الإطار، وتحت هذا المعيار، بدأ «**الإذن**» بالقتال فى القرآن الكريم للذين أخرجوا المسلمين من ديارهم:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]

فهو إذن للذين ظُلموا، وقُوتِلوا، برد الظلم والعدوان..

ـ وعندما «**أمر**» القرآن المسلمين بالقتال، كان هذا الأمر قتالاً لمن أخرجوهم من ديارهم، فهو رد لعدوان، وجزاء من نوع العمل:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٢]

- وعندما تحدث القرآن الكريم عن القتال باعتباره «**فريضة واجبة**»، كان ذلك في مقام عدوان الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم، وفتنوهم في الدين بالحصار والإكراه والتعذيب:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾ [البقرة: ٢١٦-٢١٧]

- وكذلك كان المقام وكانت الأسباب والمقاصد عندما «**استنفر**» القرآن المسلمين لخوض غمار القتال.. فالمقام والسبب - لهذا الاستنفار - هوعدوان الآخرين - من المشركين - عندما استفزوا الرسول والمؤمنين فأخرجوهم من الديار.. وعندما تآمروا على الرسول، ﷺ، ليسجنوه أو يقتلوه:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال: ٣٠]

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) ﴾ [الإسراء: ٧٦]

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد: ١٣]

﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾

[التوبة: ١٣-١٤]

- وحتى فى حال «**عتاب**» القرآن الكريم للبعض الذين تقاعسوا وتثاقلوا عن القتال، و«**استنفارهم**» لهذا القتال، كان المقام هو التذكير بالقضية التى هى السبب فى هذا القتال.. قضية عدوان الآخرين على المؤمنين بإخراجهم من الديار:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [التوبة: ٣٨-٤١]

فكل هذا «**العتاب**»، وجميع هذا «**الاستنفار**» للرد على عدوان الذين أخرجوا الرسول، ﷺ، والمؤمنين من الديار والأوطان..

- وفى مقام حديث القرآن الكريم عن «**المكانة**» التى أعدها الله، سبحانه وتعالى، للمؤمنين الذين استجابوا لدعوته.. يأتى التذكير بمقام الذين قاتلوا ردًا لعدوان الذين أخرجوهم من ديارهم واقتلعوهم من أوطانهم، وآذوهم:

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) ﴾ [آل عمران: ١٩٥]

وعلى هذا المنوال تأتى جميع الآيات القرآنية التى «أذنت» و«أمرت» و«أوجبت» و«حثت» على القتال، لتحصر مشروعية القتال فى رد عدوان الذين يقاتلوننا فى الدين، أو يخرجوننا من الديار، أو يظاهرون ويساعدون على هذا الإخراج.. ولتقف بهذا القتال - آفاقًا ومقاصد وآليات - عند رد العدوان.. فهو - فى الحقيقة - قتال القصاص:

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾ [البقرة: ١٩٤]

* * *

● وغير هذا الضبط والتحديد لأسباب القتال ـ قتال الآخرين ـ في الإسلام ـ تقدم الإسلام على درب السمو الأخلاقي غير المسبوق، في هذا الميدان، فضبط القتال وغرائزه ومضاعفاته بأخلاقيات جعلت الإسلام والمسلمين رواداً لما يمكن أن نسميه «**أخلاقيات الفروسية الإسلامية**»، حتى في هذا الميدان الذي عزت وتعز فيه الأخلاقيات.. حتى ونحن ندخل إلى القرن الواحد والعشرين!..

فالمسلمون لا يقاتلون غيلة وفجاءة، وإنما لابد لهم من إعلام الآخرين ـ المعاهدين الذين لم يتلبسوا بالخيانة والعدوان ـ بالقتال، مادام الموقف عند حدود «الخوف من نقض العهد.. والعدوان الوشيك»:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) ﴾ [الأنفال: ٥٨]

وفي السيرة النبوية الشريفة:

«إن رسول الله، ﷺ، «ما قاتل قوما حتى يدعوهم» ـ رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والطبراني ـ.. وإذا قاتل المسلمون، فإنهم لا يجهزون على جريح.. ولا يقتلون أسيرا، بل ولا يضيقون عليه في ضروريات وحاجيات الحياة.. وكذلك، فإنهم لا يقاتلون ولا يقتلون غير المقاتلين، فلا قتال ولا قتل للنساء، والأطفال، والمسالمين، والرهبان والعُبّاد، والمنصرفين إلى الزراعات والتجارات والصناعات والحرف وشئون العمران..

بل لقد ذهبت «**أخلاقيات الفروسية الإسلامية**» إلى آفاق التشريع للتعامل الإنساني الرفيق مع الحيوانات ومع النباتات إبان القتال.. فهم لا

يقطعون شجرا، ولا يقتلعون زرعًا، ولايدمرون البيئة، ولايذبحون حيوانًا إلا لضروريات وحاجيات الحفاظ على الحياة!..

وفى سنة رسول الله، ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، ذخائر لدستور هذه الأخلاقيات - أخلاقيات القتال -.. فلقد روى مالك فى «الموطأ» - عن عبدالرحمن بن كعب -:

أن رسول الله، ﷺ، «**نهى عن قتل النساء والولدان**»..

وأخرج البخارى ومسلم ومالك - فى «الموطأ» - عن ابن عمر - رضى الله عنهما -:

«أن رسول الله، ﷺ، رأى فى بعض مغازيه امرأة مقتولة، فأنكر ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان..».

وكتب عمر بن عبدالعزيز، رضى الله عنه، إلى عامل من عماله:

«إنه بلغنا أن رسول الله، ﷺ، كان إذا بعث سرية يقول لهم: **«اغزوا باسم الله، فى سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تَغُلُّوا**[1]**، ولا تغدروا، ولا تَمْثُلُوا**[2]**، ولا تقتلوا وليدا..»**.. ثم أردف عمر بن عبدالعزيز - فى رسالته إلى واليه -: «قل ذلك لجيوشك وسراياك، إن شاء الله. والسلام عليك» - رواه مسلم، ومالك - فى «الموطأ».

ومن طلب الأمان، من المقاتلين، ولو بالإشارة، فدمه مصون وحرام.. كتب بذلك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى قائد أحد جيوشه، فقال:

---

(١) الغلول: الخيانة فى المغنم، والسرقة من الغنيمة قبل قسمتها.

(٢) المثلة - بضم الميم وسكون الثاء وفتح اللام - هى التمثيل ببدن الخصم بعد قتله، بالجدع للأنف، أو السمل للعين، أو قطع الأعضاء - وهى محرمة شرعًا.

«إنه بلغنى أن رجلا منكم يطلب العلج[1] حتى إذا أسند فى الجبل وامتنع. قال رجل: مَطْرَس (يقول لا تخف) فإذا أدركه قتله. وإنى، والذى نفسى بيده، لا أعلم مكان واحد فعل ذلك إلا ضربت عنقه» ـ رواه مالك ـ فى «الموطأ»ـ..

ولقد صاغ أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ هذه الشمائل الإسلامية دستوراً لأخلاقيات القتال فى الإسلام، عندما أوصى «يزيد بن أبى سفيان» [١٨هـ ـ ٦٣٩م]، وهو يودعه أميراً على الجيش الذاهب إلى الشام، فقال له:

«إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم لله، فذرهم ومازعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له.. وإنى موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيًا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعنّ شجرًا مثمرًا، ولا تُخَرِّبَنَّ عامرًا، ولا تعْقِرَنَّ شاة، ولا بعيرًا، إلا لمأكلة. ولا تحرقن نخلا، ولا تُفَرِّقَنَّه، ولا تَغْلُلْ، ولا تَجْبُن..» ـ رواه مالك ـ فى «الموطأ»ـ..

فكان ذلك أول دستور لأخلاقيات القتال، وضعه الإسلام، وطبقه المسلمون دينا يتدينون به، قبل أربعة عشر قرنا من اتفاقات «جنيف»، ومواثيق «حقوق الإنسان»، التى لا يذكرها ولا يتعلق بها إلا الضحايا والمستضعفون!..

* * *

● ولأن هذه كانت معايير القتال فى الإسلام.. وأخلاقيات فروسية هذا القتال التى التزمها المسلمون.. كانت حصيلة ضحايا كل الغزوات التى قادها رسول الله، ﷺ، وخاضها المسلمون، على امتداد السنوات التسع التى شهدت الغزوات والبعوث والسرايا القتالية ـ فى دولة الإسلام الأولى،

---

(١) العلج ـ بكسر العين وسكون اللام ـ الفلاح من كفار العجم.

بالمدينة ـ كانت حصيلتها ذلك الرقم المدهش فى تواضعه الشديد، إن لم نقل فى ضآلته و«تفاهته»!..

فعلى حين أهلكت الحروب الدينية، بينْ مذهبين داخل النصرانية ـ الكاثوليك والبروتستانت ـ فى وسط أوربا ٤٠٪ من تعداد شعوب تلك البلاد ـ عشرة ملايين حسب إحصاء «فولتير» [١٦٩٤–١٧٧٨م] ـ **لم يزد ضحايا كل غزوات الإسلام وحروبه ضد الشرك واليهود فى شبه الجزيرة العربية، على عهد رسول الله، ﷺ، عن ٣٨٦ من الفريقين ـ شهداء المسلمين وقتلى المشركين ـ!!**

وحتى تطمئن القلوب المندهشة من «تفاهة» هذا الرقم! ـ إذا جاز التعبير ـ فإننا نقدم الجدول الإحصائى لضحايا الغزوات والبعوث العشرين، التى سقط فيها ضحايا:

رقم	الغـــزوة	عدد قتلى المشركين	عدد شهداء المسلمين	تاريخ الغزوة	ملاحظـــات
١	بعث عبدالله بن جحش	١	-	سنة ٢ هـ	
٢	غزوة بدر	٧٠	١٤	سنة ٢ هـ	
٣	غزوة السويق	-	٢	سنة ٢ هـ	
٤	بعث كعب بن الأشرف	١	-	سنة ٣ هـ	
٥	غزوة أحد	٢٢	٧٠	سنة ٣ هـ	
٦	غزوة حمراء الأسد	١	-	سنة ٣ هـ	
٧	بعث الرجيع	-	٧	سنة ٣ هـ	
٨	بعث بئر معونة	-	٢٧	سنة ٣ هـ	
٩	غزوة الخندق	٣	٦	سنة ٥ هـ	
١٠	غزوة بنى قريظة	٦٠٠	-	سنة ٥ هـ	هؤلاء قُتلوا بالتحكيم جزاء الخيانة، فلا يحسب عددهم فى ضحايا القتال..
١١	بعث عبدالله بن عتيك	١	-	سنة ٥ هـ	
١٢	غزوة ذى قرد	١	٢	سنة ٦ هـ	
١٣	غزوة بنى المصطلق	-	١	سنة ٦ هـ	
١٤	غزوة خيبر	٢	٢٠	سنة ٧ هـ	
١٥	غزوة وادى القرى	-	١	سنة ٧ هـ	
١٦	غزوة مؤتة	-	١١	سنة ٨ هـ	
١٧	فتح مكة	١٧	٣	سنة ٨ هـ	
١٨	غزوة حنين	٨٤	٤	سنة ٨ هـ	
١٩	غزوة الطائف	-	١٣	سنة ٨ هـ	
٢٠	غزوة تبوك	-	-	سنة ٩ هـ	
	المجمـــوع	٢٠٣	١٨٣		المجموع الكلى من الجانبين ٣٨٦(*)

(*) ابن عبد البر [الدرر فى اختصار المغازى والسير] تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

بل إن الدهشة لتتزايد إذا علمنا أن عدد المساجد التى أقامتها جيوش الجهاد الإسلامى - وهى ذاهبة إلى القتال أو وهى عائدة منه - قد زادت على عدد الضحايا الذين قتلوا فى هذه الغزوات!.. وكذلك عدد البعوث التى خرجت من المدينة المنورة لتعليم الناس القرآن والفقه فى الدين قد فاقت بكثير عدد بعوث الغزو وسرايا القتال!..

لقد كانت معارك مكروهة، فرضها المشركون واليهود على رسول الله، ﷺ، والذين آمنوا معه..

وإذا كان القرآن الكريم يعلمنا أن اليهود هم أحرص الناس على حياة - حياتهم هم - بينما هم أحرص الناس على إبادة كل الأغيار.. فإن الحرص الإسلامى إنما هو على هداية الأحياء، لإحيائهم بالإسلام.. فهدف الإسلام هو الإحياء.. وليس الإفناء:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ [الأنفال: ٢٤]

ومع كل هذه الحقائق والأرقام المذهلة.. ومع هذه الأخلاقيات التى حكمت فروسية القتال الإسلامية.. ومع هذه المبادئ والمعايير القرآنية التى حكمت مشروعية القتال فى الإسلام.. مع كل ذلك، تجدّث الكَذَبة عن انتشار الإسلام بالسيف والعنف والإكراه.. ولايزالون يتحدثون!..

* * *

● أما موقف «اليهودية - التوراتية» من قتال وقتل الآخرين والأغيار.. فإنه - بإيجاز.. وفى كلمات -: «**الإبادة لكل الآخرين.. حتى ولو كانوا لا علاقة**

لهم بالقتال وفنونه وقدراته.. أو حتى نيته والتفكير فيه!.. الإبادة لمطلق الناس وعموم النفوس.. بل وللبيئة والمحيط اللذين يعيش فيهما هؤلاء الآخرون..»!!.. شريطة أن يكون اليهود على هذه الإبادة قادرين!..

ولننظر كيف فاقت وتفوقت نصوص هذه التوراة ـ التى هى انقلاب على روح ومقاصد ومعايير توراة موسى، عليه السلام ـ.. كيف فاقت وتفوقت نصوصها على الخيال، فى التشريع والتقنين لإبادة الآخرين، لا لشىء إلا لأنهم آخرون وأغيار!..

والعجيب أن هذه التوراة تورد كل أوامر الإبادة ـ إبادة اليهود للأغيار ـ باعتبارها أوامر «الرب» وفرائضه، التى بدون تنفيذها يتزايد غضبه وانتقامه!.. فرب اليهود «يهوه» ـ وهو خاص بهم، وهم وحدهم شعبه وأحباؤه ـ هو «رب الجنود.. والجيوش».. والشرط «لكى يرجع الرب عن حُمُوِّ غضبه ويعطيك الرحمة»[1] هو أن يبيد الشعب اليهودى كل الآخرين والأغيار!..

ولذلك طفحت أسفار التوراة، وكتاب يشوع بالأوامر والوصايا التى تقول:

ـ «**فقال الرب لموسى: اكتب هذا تذكارا فى الكتاب، وضعه فى مسامع يشوع: فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء**»[2].

ـ وهذا «الرب» لا تقف أوامر الإبادة لديه عند من يحاربهم اليهود، وإنما تمتد لعنة الإبادة الجماعية إلى الذرية حتى الجيل الرابع!.. «**فالرب لا يبرئ؛ بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع**»[3]!

(١) سفر التثنية. إصحاح ١٣: ١٧.

(٢) سفر الخروج. إصحاح ١٧: ١٤.

(٣) سفر العدد. إصحاح ١٤: ١٨.

فأين هذا من رب العالمين القادر العادل، الذى علمنا فى قرآنه الكريم:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) ﴾ [الأنعام: ١٦٤]

- بل إن هذه الإبادة للأغيار ترتفع فى النصوص التوراتية، ومن ثم فى الثقافة التى صنعتها وصبغتها هذه التوراة، عند الجماعات اليهودية، إلى حد التقرب بها - بالإبادة - إلى هذا «الرب»: **«إن سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولاً.. فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتُحَرِّمها - [تدمرها وتهلكها] - بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف. تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتُحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلا إلى الأبد لا تُبْنَى بعد.. لكى يرجع الرب عن حُمُوِّ غضبه ويعطيك رحمة»**[1]!

فرحمة هذا «الرب» - يهوه - مرهونة بإبادة الإنسان والحيوان، وحتى الطبيعة والمبانى والجماد!..

- وهذا «الرب» - يهوه - يأمر موسى بالانتقام من «المديانيين»: **«وكلّم الرب موسى قائلا: انتقم نقمة لبنى إسرائيل من المديانيين.. فكلّم موسى الشعب قائلا: جردوا منكم رجالا للجند فيكونوا على مديان، ليجعلوا نقمة الرب على مديان.. فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر.. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم، كل**

(١) سفر التثنية. إصحاح ١٣: ١٢، ١٥ - ١٧.

أملاكهم. وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار. وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم. وأتوا إلى موسى وألعازار الكاهن وإلى جماعة إسرائيل بالسبى والنهب والغنيمة..»

وعندما جاءوا إلى موسى بالسبى والنهب والغنيمة قال لهم - فيما زعموا فى هذا التحريف للتوراة -: **«هل أبقيتم كل أنثى حية؟.. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها. لكن جميع الأطفال من النساء اللواتى لم يعرفن بمضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات..»**[1].

- وأوامر «الرب» هذه، بهذه الإبادة الكاملة، هى عامة.. وإذا لم ينفذها بنو إسرائيل، فإن «ربهم» فاعل بهم الإبادة التى طلب منهم إيقاعها بالأغيار!.. **«وكلّم الرب موسى فى عربات مو آب على أُرْدُنّ أريحا قائلا: كلِّم إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون الأردنّ إلى أرض كنعان. فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم.. تملكون الأرض وتسكنون فيها.. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكا فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم ويضايقونكم فى الأرض التى أنتم ساكنون فيها. فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم»**[2].

- ويتم التطبيق والتعميم لهذه الإبادة على كل الأغيار.. **فـ«سيحون، ملك حشبون».. ضربناه وبنيه وجميع قومه، وأخذنا كل مدنه فى ذلك الوقت، وحرّمنا - [أبدنا وأهلكنا] - من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال. لم نبق شاردا. لكن البهائم نهبناها لأنفسنا وغنيمة المدن التى أخذنا..»**[3].

---

(١) سفر العدد. إصحاح ٣٠: ١-٣، ٧، ٩ - ١٢، ١٥ - ١٨.

(٢) سفر العدد. إصحاح ٣٣: ٥٠ - ٥٢، ٥٥، ٥٦.

(٣) سفر التثنية. إصحاح ٢: ٢٦، ٢٣ - ٢٥.

و«عوج، ملك باشان.. ضربناه حتى لم يبق له شارد. وأخذنا كل مدنه في ذلك الوقت. لم تكن قرية لم نأخذها منهم. فحرّمناها - [دمرناها وأهلكناها] - كما فعلنا بسيحون، ملك حشبون، محرّمين كل مدينة، الرجال والنساء والأطفال. لكن كل البهائم وغنيمة المدن نهبناها لأنفسنا»[1].

وكذلك الحال - حال الإبادة العامة والتامة للأغيار من الشعوب السبعة «الحثيين»، و«الجرجاشيين»، و«الأموريين»، و«الكنعانيين»، و«الفرزِّيين»، و«الحوِّيين»، و«اليبوسيين» **«سبع شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرِّمهم - [تهلكهم وتدمرهم] -. لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم. ولا تصاهرهم.. لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. مباركًا تكون فوق جميع الشعوب. لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك. ويرد الرب عنك كل مرض وكل أدواء مصر الرديئة التي عرفتها لا يضعها عليك بل يجعلها على كل مبغضيك. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم..»**[2].

فاليهود شعب مقدس.. وحتى بهائمهم مقدسة، لا يجري عليها ما يجري على البشر الآخرين ولا البهائم الأخرى من الأمراض والعقم.. والمهمة الإلهية المقدسة لهؤلاء اليهود هي **«أكل الشعوب»** التي يدفعها «الرب» إلى هؤلاء اليهود، حاكما عليها بهذا المصير الرهيب!..

- ولن ينجي البشر والمدن من «أكل اليهود» لهم عقود ومعاهدات الصلح الذي يصالحونه لليهود أو السلم الذي يعقدونه معهم.. **فـ«حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحتْ لك،**

---

(١) سفر التثنية. إصحاح ٣: ١، ٣، ٦، ٧.

(٢) سفر التثنية. إصحاح ٧: ١ - ٣، ٦، ٧، ١٤ - ١٦.

فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك. وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربا، فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن.. فلا تَسْتَبْقِ منها نسمة ما. بل تحرِّمها تحريما ـ [تبيدها وتهلكها إبادة وإهلاكا]..»(١).

ـ وكذلك فعل «يشوع بن نون»، تنفيذا لأمر الرب **«فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها. لم يُبق شاردا، بل حرَّم ـ [أهلك] ـ كل نسمة، كما أمر الرب إلهُ إسرائيل،»**(٢).

وهكذا نجد أنفسنا أمام «رب» لا علاقة له بأى من صفات الكمال الإلهية.. وأمام «كتاب مقدس» لا علاقة لتحريفاته العنصرية الحقودة التى أُدخلت عليه بأى معنى من معانى القداسة.. وأمام ثقافة عنصرية، طفحت بها أحقاد السبى وأكاذيبه وعقده وخيالاته، لتكون المكوِّن الأول للسلوك العنصرى الذى نواجه تجلياته الصهيونية على أرض فلسطين.. فنحن العرب والمسلمين «الأغيار»، إذا صالحنا هؤلاء اليهود، فإن جزاءنا هو «التسخير والاستعباد»، وإذا لم نصالح، فإن جزاءنا هو الخضوع للأكل اليهودى، والتحريم ـ [الهلاك] ـ الصهيونى، وذلك تنفيذاً لأوامر «يهوه»، رب وإله إسرائيل!(٣).

---

(١) سفر التثنية. إصحاح ٢٠: ١٠ – ١٦.

(٢) كتاب يشوع. إصحاح ١٠: ٤٠.

(٣) للأستاذ المهندس عادل المعلم دراسة نصية متميزة فى هذا المجال، صدر منها جزءان بعنوان [التوراة والقرآن مقارنة نصية] والجزء الثانى منها خاص بالقتال فى نصوص التوراة والقرآن.. طبعة مكتبة الشروق سنة ١٤٢٠هـ سنة ١٩٩٩م.

فهل رأينا فارقًا - أدنى فارق - بين هذه «اليهودية - التوراتية» وبين «اليهودية - التلمودية»، تلك التى حدثنا عنها «إسرائيل شاحاك»؟!

* * *

وإذا كان هذا الذى أشرنا إلى طرف منه - عن موقف اليهود واليهودية التلمودية والتوراتية من الأغيار - قد انحط إلى ما هو أدنى من **«وحل الثرى»**.. فإن المرء لا يملك أمامه إلا أن يتذكَّر ويُذكِّر بـ**«ثريا الإسلام»**.. ذلك الدين العظيم الذى بلغت إنسانيته حد التكريم والتفضيل للإنسان - مطلق الإنسان - بصرف النظر عن دين ونسب ولون ولغة وثقافة وحضارة هذا الإنسان:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) ﴾ [الإسراء: ٧٠]

والذى تحدث قرآنه الكريم عن تسخير الله، سبحانه وتعالى، كل النعم للإنسان، مطلق الإنسان:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]

والذى نهض رسوله ﷺ قائما احتراما لجنازة يهودى، فلما حدَّثه بعض صحابته عن أن هذه الجنازة التى قام لها هى ليهودى، رد ﷺ - مستنكرا ومُعلِّما - فقال: «**أليست نفسا**»؟!.. وكذلك صنع صحابته فى

القادسية ـ وسكانها يومئذ مجوس ـ .. فعن ابن أبى ليلى أن قيس بن سعد وسهل بن حنيف كانا بالقادسية، فمرت بهما جنازة، فقاما. فقيل لهما: إنها من أهل الأرض ـ [القادسية] ـ فقالا: إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل: إنه يهودى. فقال: **«أليست نفسا»**؟! ـ رواه البخارى ومسلم ـ.. وذلك فضلا عن الاحترام والتقديس لنفوس الأحياء!..

والإسلام هو الذى احترم الدم الإنسانى لمطلق الإنسان.. واحترم مال غير المسلم احترامه لمال المسلم، بل وأكثر، وذلك عندما قرر احترام مال غير المسلم الذى لا حرمة له إذا كان فى يد المسلم ـ مثل الخمر والخنزير ـ!.. بل وقرر الحرية، ومن ثم الرفق بالحيوان.. والشجر والنبات ـ حتى فى زمن الحروب والقتال ـ.. وقررت سنة نبيه ﷺ قبل أربعة عشر قرنا، لغير المسلمين فى دولة الإسلام مثل ما للمسلمين **«لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم، وفيما عليهم..»**(1)

وهو المبدأ الذى جسدته السياسة الشرعية للدولة الإسلامية عبر تاريخ الإسلام.. حتى ليقول الإمام على بن أبى طالب [٢٣ ق.هـ ـ ٤٠هـ/ ٦٠٠ ـ ٦٦١م] لواليه على مصر ـ الأشتر النخعى [٣٧هـ ـ ٦٥٧م] ـ وكانت مصر فى أغلبية أهلها نصرانية الدين يومئذ ـ: **«الناس صنفان: إما أخ لك فى الدين، أو نظير لك فى الخلق.. فأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم..»**(2)..

---

(1) من كتاب رسول الله ﷺ لنصارى نجران ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية فى شرق الأرض وغربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، معروفها ومجهولها..». انظر [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة]، ص١٢٦.

(2) [نهج البلاغة]، ص٣٣٢، طبعة دار الشعب، القاهرة.

تلك هـى صـــورة الآخـــر فى الإســـلام ـ الإســـلام الديـن.. والدولـة.. والثقافة.. والحضـارة.. والتـاريخ ـ.. فـأين منهـا صـورة الآخـر ـ الأغيـار ـ تلك التى رأينا طرفا منها فى اليهودية التلمودية والتوراتية وثقافات وممارسات الجماعات اليهودية عبر تاريخهم الطويل والكئيب؟!..

* * *

الإسلام والنصرانية :

من يعترف بمن؟.. ومن ينكر من؟؟

● ونفس الشىء نجده لدى الإسلام مع صورة عيسى بن مريم، عليهما السلام، فى الدين الإسلامى - قرآنا وسنة - وفى الثقافة الإسلامية - وكذلك مع النصارى فى الدولة الإسلامية، وتاريخ وحضارة الإسلام..

فعيسى، عليه السلام، هو: الوجيه.. المبارك.. المؤيد بالبينات وروح القدس.. وبالكتاب والحكمة.. وبالمعجزات.. والذى عليه سلام الله يوم وُلد ويوم يموت ويوم يبعث حيا:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) ﴾ [آل عمران: ٤٥]

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾

[مريم: ٣٠-٣٣]

﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) ﴾

[البقرة: ٨٧]

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) ﴾ [آل عمران: ٤٨]

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً

لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾ [المائدة: ٤٦-٤٨]

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) ﴾ [آل عمران: ٤٩]

تلك هى صورة عيسى وإنجيله ـ الذى يطلب القرآن من أهله أن يحتكموا إليه، ويحكموا بما فيه..

أما صورة النصارى فى الدولة الإسلامية، والمجتمع الإسلامى، والثقافة الإسلامية، منذ العهد النبوى وحتى عصرنا الراهن، فلقد كانت ـ فى مجملها ـ هى التطبيق والتجسيد لهذا الموقف القرآنى..

فالرسول ﷺ هو الذى تحدث عن عيسى، عليه السلام، فقال: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا والآخرة، الأنبياء أولاد علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وليس بيننا نبى» ـ رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد ـ..

وعندما بدأت العلاقات بين سلطة الدولة الإسلامية الأولى ـ على عهد النبى ﷺ وبين الرعية المتدينة بالنصرانية، قررت لهم الدولة الإسلامية ـ بالكتب والعهود الموثقة، كتابة وإشهادا، والمهورة بخاتم رسول الله ﷺ ـ قررت لهم كامل المساواة فى حقوق وواجبات المواطنة، بإطار الأمة الواحدة والرعية الواحدة ـ **«لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»** ـ.. وجاء فى عهد رسول الله ﷺ لنصارى نجران، وعموم المتدينين بالنصرانية:

« .. لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض، جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبِيَعِهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. أن أحمى جانبهم، وأذُبَّ عنهم، وعن كنائسهم وبِيَعِهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى.. لأنى أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم بالعهد الذى استوجبوا حق الذمام، والذب عن الحرمة، واستوجبوا أن يُذَبَّ عنهم كل مكروه، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم.. لا يُغَيَّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته. ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شىء مما كانوا عليه..

وليس عليهم دَنِيَّة، ولا دم جاهلية، ولا يحشرون[1]، ولا يُعَشَّرون[2]، وليس عليهم خراج ولا جزية إلا على من يكون فى يده ميراث من ميراث

(١) أى لا يجمعون للقتال، والتعبئة لمتطلباته.

(٢) أى لا يدفعون ضريبة العشر ـ التى يدفعها الأجانب على تجاراتهم ـ لأنهم مواطنون، لا أجانب مستأمنون.

الأرض، ممن يجب عليه فيه للسلطان حق، فيؤدى ذلك على ما يؤديه مثله، ولا يُجار عليه، ولا يُحَمَّلُ منه إلا قدر طاقته وقوّته على عمل الأرض وعمارتها وإقبال ثمرتها، ولا يُكَلَّفُ شططا، ولا يُتَجَاوَزُ به أصحاب الخراج من نظرائه.

ولا يُكَلَّفُ أحدٌ من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقران.. وأن يكون المسلمون ذُبّابًا عنهم، وجوارا من دونهم، ولا يُكْرَهوا على تجهيز أحد من المسلمين إلى الحرب الذى يلقون فيه عدوهم، بقوة سلاح أو خيل، إلا أن يتبرعوا من تلقاء أنفسهم، فيكون من فعل ذلك منهم وتبرع به، حُمِدَ عليه وعُرِف له، وكوفئ به.

ولا يطأ أرضهم جيش.. ومن سأل منهم حقا، فبينهم النَّصَف غير ظالمين ولا مظلومين.

ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر.. ولا إدخال شيء من بنائهم فى شيء من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين..

ولا يُحَمَّلوا من النكاح شططا لا يريدونه، ولا يُكْرَهُ أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يُضاروا فى ذلك إن منعوا خاطبا وأبوا تزويجا، لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، ومسامحة أهوائهم إن أحبوه ورضوا به.

وإذا صارت النصرانية عند المسلم، فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواها فى الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك، فمن خالف ذلك وأكرهها على شيء من أمر دينها، فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله، وهو عند الله من الكاذبين.

ولهم - إن احتاجوا إلى مَرَمَّة بِيَعِهم وصوامعهم، أو شيء من مصالح أمورهم ودينهم - إلى رفد[1] من المسلمين وتقوية لهم على مَرَمَّتِها، أن يُرْفَدُوا على ذلك ويُعَاوَنوا، ولا يكون ذلك دَيْنًا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله لهم، ومِنَّةً لله ورسوله عليهم..

ولا يُجْبَرُ أحد ممن كان على ملة النصرانية كُرْهًا على الإسلام:

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

ويُخْفَضُ لهم جناح الرحمة، ويُكَفُّ عنهم أذى المكروه حيث كانوا، وأين كانوا من البلاد.

واشترط عليهم - [الرسول ﷺ] - أمورا يجب عليهم في دينهم التمسك والوفاء بما عاهدهم عليه، منها:

ألا يكون أحد منهم عينا ولا رقيبا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين في سره وعلانيته، ولا يأوي منازلهم عدوٌّ للمسلمين، يريدون به أخذ الفرصة وانتهاز الوثبة، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا في شيء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يرفدوا أحدا من أهل الحرب على المسلمين، بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم..

---

(١) أي دعم وإعانة.

وإن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم، وعند منازلهم، ومواطن عباداتهم، أن يؤووهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم، ولا يُظهروا العدو على عوراتهم، ولا يخلوا شيئا من الواجب عليهم»[1]

تلك هى صورة مكانة **«الآخر النصرانى»** فى الدولة الإسلامية الأولى، كما حددتها ورسمت معالمها معاهدات رسول الله ﷺ مع النصارى ـ **«من أهل نجران وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض»**.. لقد قرر لهم الإسلام ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. **فجعل هذا «الآخر» جزءا من «الذات»، ذات الأمة الواحدة والرعية المتحدة فى حقوق وواجبات المواطنة، مع حرية التعدد والاختلاف فى الدين، دون أدنى تمييز أو إكراه..**

ورأينا ـ كذلك ـ فى معالم هذه الصورة، حاطب بن أبى بلتعة [٣٥ ق.هـ ـ ٣٠هـ/ ٥٨٦ ـ ٦٥٠م] عندما حمل رسالة رسول الله ﷺ إلى **«المقوقس»** ـ عظيم النصارى القبط ـ بمصر سنة ٧هـ/ سنة ٦٢٨م يقرر له ولأتباعه ـ بعد أن عرض عليه الإسلام ـ الشامل للنصرانية وغيرها من الرسالات السماوية، والذى لا يفرق هو ولا أهله بين أحد من رسل تلك الرسالات:

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة]، ص١١١-١٢٨.

رأينا حاطب بن أبى بلتعة يقرر للمقوقس - ولسائر النصارى - حرية التدين بدين المسيح.. بل ويدعوه إلى الالتزام بذلك الدين!.. فيقول له: **«ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به..»**[1].. فالإسلام، **«الكافى به الله فقد ما سواه»**، هو الذى يجعل التعددية والاختلاف فى الشرائع الدينية سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾ [المائدة: ٤٨]

وعلى هذه السنة التى سنها رسول الله ﷺ سارت دولة الخلافة الراشدة.. فعمر بن الخطاب [٤٠ق.هـ - ٢٣هـ/ ٥٨٤ - ٦٤٤م] عندما تسلم مدينة «أيليا» - بيت المقدس - سنة ١٥هـ سنة ٦٣٥م، كتب لنصاراها عهدا قرر فيه **«الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. وأنه لا تُسْكَنُ كنائسهم ولا تُهدَم، ولا يُنْتَقَصُ منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم، ولا يُكْرَهون على دينهم، ولا يُضَارَّ أحد منهم. ولا يسكن بأيليا معهم أحد من اليهود[2].. وعلى أهل أيليا أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن.. ومن أحب من أهل أيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على**

---

(١) ابن عبدالحكم [فتوح مصر وأخبارها]، ص٤٦، طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

(٢) كان إخراج اليهود من القدس مطلبا لأهل أيليا..

أنفسهم وبيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم.. وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين..»[1]

ثم تمضى الحياة فى الدولة الإسلامية ومجتمعاتها، عبر تاريخها الحضارى، محافظة على هذا النهج إزاء الآخر النصرانى ـ الآخر فى الدين.. والجزء العضوى من ذات الأمة والرعية ـ.. فينقذ الفتح الإسلامى لمصر نصارى القبط ونصرانيتهم من الهلاك والزوال.. فقبل هذا الفتح كان الغزو والقهر الإغريقى والرومانى والبيزنطى ـ الذى استمر نحو عشرة قرون ـ من فتح الإسكندر الأكبر [٣٥٦ ـ ٣٢٤ق.م] فى القرن الرابع قبل الميلاد إلى الفتح الإسلامى فى القرن السابع للميلاد ـ.. كان قد بلغ بمصر حد **«الحرمان الحضارى»**، عندما حرمها من الثقافة الوطنية.. ومن اللغة القومية ـ التى قُهرت فكتبت بالحروف اليونانية ـ.. وذلك فضلا عن الحرمان من سياسة الدولة وسلطانها..

أما عن الاضطهاد الدينى الذى نزل بنصارى مصر ـ سواء فى عهد الوثنية الرومانية أو فى عهد نصرانيتها ـ فلقد بلغ فى البشاعة حد التأريخ بعصر شهدائه لدى الكنيسة القبطية حتى الآن!.. فالإبادة التى مارسها الإمبراطور الرومانى **«دقلديانوس»** [٢٨٤–٣٠٥ق.م] جعلت عصره ـ بالنسبة للنصرانية المصرية ـ **«عصر الشهداء»**.. وعلى درب **«دقلديانوس»** الوثنى سار الإمبراطور الرومانى ـ النصرانى ـ **«جستنيان الأول»** [٥٢٧–٥٦٥م] ـ رغم **«مدونته القانونية»**! ـ فقتل ٢٠٠٠ قبطى بالإسكندرية وحدها.. ومن نجا من القتل يومئذ هرب إلى الصحراء!.. حتى لقد انسحبت النصرانية المصرية وأهلها من الحياة المدنية إلى المغارات والكهوف فى مفازات الصحراء.. وكان

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة]، ص٣٤٥، ٣٤٦.

البطرك **«بنيامين»** ـ أو **«أبو الميامين»** [٣٩هـ-٦٥٩م] فى مقدمة الذين فروا إلى الصحراء، فاختفى فيها ثلاثة عشر عاما.. وعندما أفلت من قبضة الرومان قبضوا على أخيه وعذبوه عذابًا بشعًا، بالإحراق بالمشاعل، وخلع أسنانه، وتهديده بالإغراق فى البحر.. فلما لم يتراجع أحرقوه وألقوه فى البحر غريقًا![1]

فلما جاء الفتح الإسلامى أمّن عمرو بن العاص [٥٠ق.هـ-٤٣هـ-٥٧٤-٦٦٤م] البطرك **«بنيامين»**، واستدعاه، واستقبله، وأكرمه، وأعاده إلى كرسى كنيسته معززا مؤيدا..

واستعاد الإسلام الكنائس المصرية من الاحتلال البيزنطى، واغتصاب المذهب الملكانى الرومانى لهذه الكنائس، لا ليجعلها مساجد إسلامية، وإنما ليعيدها إلى نصارى مصر مرة أخرى ـ ولعلها كانت المرة الأولى التى يشهد فيها التاريخ الإنسانى هذا الصنيع ـ.. حتى لقد اعتبر فقهاء الإسلام ـ ومنهم **«الليث بن سعد»** [٩٤-١٧٥هـ/ ٧١٣-٧٩١م] أن جميع كنائس مصر قد حدثت فى ظل دولة الإسلام، لأن أقباط مصر لم تكن لهم كنائس حتى حررهم وحرر نصرانيتهم الإسلام!..

ولقد ظلت الأغلبية الساحقة من نصارى مصر على نصرانيتها قرابة قرنين من الزمان، دون إكراه على الدخول فى الإسلام، حتى دخل منهم الإسلام من رغب.. ثم استمرت أقلية منهم على نصرانيتها، متحلقة حول أقدم كنائس النصرانية ـ الكنيسة الأرثوذكسية ـ التى أنقذها الإسلام من الهلاك والزوال.. فأصبحت ـ فى الحقيقة والواقع ـ إحدى **«هبات الإسلام»**!..

---

(١) د. توفيق الطويل [قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام] ص٧٤ طبعة القاهرة سنة ١٤١٢هـ سنة ١٩٩١م.

وكان هذا الذى صنعه الإسلام ـ الدين والدولة والمجتمع ـ مع **«الآخر النصرانى»** ـ فى مصر ـ النموذج الذى تجسد مع كل النصارى فى مختلف البلاد التى فتحها الإسلام، عندما انتمت شعوبها ـ على اختلاف عقائدها الدينية ـ إلى أمة ودولة وحضارة الإسلام.. لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين.. بل إن المتأمل لصنيع الإسلام مع عموم أهل الكتاب، يراه قد تجاوز جعلهم جزءا من الأمة والرعية، إلى جعلهم ـ أيضا ـ بالمصاهرة ـ جزءا من أسرة المسلم، وذلك عندما تصبح الزوجة الكتابية سكنا للزوج المسلم، وينشأ أولاده منها وأخوالهم كتابيون.. فتصبح الصلات بينهم فى مستوى **«أولى الأرحام»**!..

* * *

● وإذا كانت هذه هى صورة **«الآخر النصرانى»**، فى الدين الإسلامى ودولته ومجتمعه وثقافته.. فما هى صورة «الإسلام.. ورسول الإسلام، ﷺ.. و«**كتاب الإسلام.. وأمة الإسلام**» فى الثقافة النصرانية واللاهوت النصرانى؟..

إن صورة **«الآخر الإسلامى»** فى الثقافة اللاهوتية الغربية طافحة بما يعف القلم عن إعادة كتابته، فى الكثير من الأحيان.. وإذا كان لابد من إيراد بعض الأمثلة على ملامح هذه الصورة الزائفة والبشعة والشوهاء.. فلننظر ماذا قالوا ويقولون..

لقد كتب أحد المفكرين والعلماء الألمان المعاصرين فقال:

«لقد اعتبر المسيحيون الأوربيون محمدا ﷺ رجلا عاش حياة داعرة، وتجاوز خبثه كل حدود الدناءة والانحطاط.. ولم يتورع خيالهم عن الادعاء بأن رسول الإسلام كان فى الأصل كاردينالا كاثوليكيا، تجاهلته الكنيسة فى

انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق انتقاما من الكنيسة.. واعتبرت أوربا المسيحية، فى القرون الوسطى، محمدا المرتد الأكبر عن المسيحية، الذى يحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية.»!!(١)

وها هو أكبر فلاسفة الكاثوليكية **«القديس»** توما الأكوينى [١٢٢٥-١٢٧٤م] يتحدث عن رسول الإسلام، فيصوره للثقافة اللاهوتية النصرانية، بقوله: **«لقد أغوى محمد الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية.. وحرَّف جميع الأدلة الواردة فى التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون فى البادية»**!!(٢)

أما «مارتن لوثر» [١٤٨٣-١٥٤٦م] - رأس البروتستانتية - فهو القائل عن القرآن الكريم: **«أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن، الملىء بالأكاذيب والخرافات والفظائع..»**!!

وهو الذى يصف رسول الإسلام ﷺ بأنه **«خادم العاهرات وصائد المومسات»**!!.. كل ذلك، ليُجَيِّش القساوسة والدهماء فى الحرب ضد الأتراك العثمانيين.. فيقول: **«على القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضا ليقوى إيمانهم بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب - ضد الأتراك - ويضحوا بأموالهم وأنفسهم..»**!!(٣)

---

(١) [صورة الإسلام فى التراث الغربى] تأليف: هوبرت هيركومر، جيرنوت روتر - ترجمة: ثابت عيد. تقديم: د. محمد عمارة. ص٢٣، ٢٤ طبعة دار نهضة مصر - سلسلة «فى التنوير الإسلامى» - القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢، ٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص٢١.

فهل هناك مقارنة ـ أدنى مقارنة ـ أو شبه ـ أدنى شبه ـ بين ثقافة إسلامية لا يكتمل إيمان أهلها إلا بما رأينا من أوصاف قرآنية لموسى وعيسى ومريم، عليهم السلام، وبين هذه الثقافة اللاهوتية ـ الكاثوليكية والبروتستانتية ـ التى علقت قوة الإيمان بالمسيحية على هذا الذى وصفت به الإسلام والوحى القرآنى ونبى الإسلام؟!..

* * *

لقد حوَّلت الحضارة الغربية الديانة النصرانية عن طبيعتها الصوفية المسالمة، وأخرجتها عن رسالتها التى وقفت عند «خلاص الروح ـ ومملكة السماء»، وطوَّعتها إلى النزعة «الصراعية الدنيوية» التى سادت نظريات وممارسات تلك الحضارة المادية..

ولقد كان عبقريًا ذلك الفيلسوف المعتزلى، قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمدانى [٤١٥هـ-١٠٢٤م] عندما شخص هذا «التحول ـ الانقلابى» ـ الذى حدث للنصرانية الغربية ـ فى عبارته الحكيمة الجامعة التى تقول: **«إن النصرانية عندما دخلت روما، لم تتنصرْ روما، ولكن النصرانية هى التى تَرَوَّمَت!!»**.

ولهذا، كان الضيق بالآخر، والإنكار له، والسعى فى اضطهاده واستئصاله موقفًا عامًا، ومؤسسيًا، يُنَظِّرُ له «**القديسون**»، ويجعلونه من مقتضيات «**قانون الإيمان**»!!.. ثم تنهض البابوية والكنائس بإجبار الدول والأباطرة والملوك والأمراء ـ فضلاً عن الدهماء ـ على شن حملات الاضطهاد والحروب والإبادة للمخالفين!..

● فالقديس «أوغسطين» Augustin [٣٥٤-٤٣٠م] ـ وهو أشهر آباء الكنيسة الغربية ـ هو الذى صاغ مبدأ الاضطهاد للمخالفين.. وأقامه على

أساس من الكتاب المقدس، مستنداً إلى كلمات فاه بها المسيح - عليه السلام - فى «مثل من أمثاله» التى كان يسوقها إلى حوارييه، إذ قال لهم - ما معناه -: «أجبروهم على اغتناق دينكم Compelle Intrare»!.. فوضع هذا القديس للكنيسة دستور اضطهاد المخالفين - بعقوبات النفى والجلد والغرامات والإعدام ذبحاً وحرقاً -.. ومضت الكنيسة «مجاهدة» لتطبيق هذا الدستور![1]

● وعندما حصرت الكنيسة الغربية «الخلاص» فى «الكثلكة»، حكمت بأن «خلاص» مخالفيها هو «**بتخليصهم من الحياة**»!.. **«فالذين لا يذعنون للكنيسة، ويعتقدون بصدق نظرياتها، تحيق بهم اللعنة الأبدية لا محالة.. ويصبح إنقاذ الدنيا منهم واجبا مقدسا!.. وحتى الطفل - على براءته وخلو ساحته من الخطايا - متى مات من غير تعميد - على المذهب الكاثوليكى - قضى بقية حياته فى جهنم!.. ولذلك، كان طبيعيا - فى ظل هذه العقيدة للخلاص، وهذا الدستور لاضطهاد المخالفين - أن يتعرض المتهمون بالمروق لأشد صنوف العذاب..»**[2].

● وانطلاقاً من «عقيدة» خلاص المخالفين بتخليصهم من الحياة، وتعريضهم لمختلف صنوف العذاب.. مهد البابا «إنوسنت الثالث» [١١٩٨-١٢١٦م] فى سنة ١٢٠٨م لنظام محاكم التفتيش..[3]

● وفى سنة ١٢٠٩م أصدر مجلس «أڤينون» Avignon قراراً دعا فيه القساوسة إلى مطالبة السلطة المدنية - للملوك والأمراء - باستئصال المخالفين..

---

(١) د. توفيق الطويل [قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام] ص٧٠، ٧. طبعة القاهرة سنة ١٤١٢هـ-سنة ١٩٩١م.

(٢) المرجع السابق. ص٧٣.

(٣) المرجع السابق. ص٧٦، ٧٧.

● وفى سنة ١٢١٥م قرر مجمع «لاتران» أن يُقسم كل حاكم يطمع فى أن يكون فى عداد المؤمنين، بأن يجاهد ما وسعه الجهاد ليستأصل من إقليمه من تعدهم الكنيسة مهرطقين!..

وأعلنت البابوية غفران كل الذنوب لمن يجاهد للقضاء على أعدائها، حتى ولو كان هؤلاء الأعداء نساء أو أطفالاً، وذلك بتعقبهم شنقًا وحرقًا وذبحًا!..

وصار من المبادئ العامة للكنيسة الكاثوليكية هذا المبدأ:

«يحتفظ الحاكم بعرشه متى قام بواجبه فى استئصال الإلحاد، فإن تردد فى الاستجابة لأمر البابا باضطهاد المخالفين، أُكره على الطاعة، وصودرت أملاكه، وبيعت لأعوان الكنيسة، وعرِّض نفسه للاعتقال والإذلال!»[(١)].

● وأنشأ البابا «جريجورى التاسع» [١٢٢٧-١٢٤١م] - فى عهد الملك - القديس - «لويس التاسع» [١٢١٤-١٢٧٠م] - ملك فرنسا - محكمة التفتيش - أو «ديوان التحقيق» Inquisition سنة ١١٢٣م.. ثم جاء البابا «إنوسنت الرابع» [١٢٤٣-١٢٥٤م] سنة ١٢٥٢م ليجعل من اضطهاد محاكم التفتيش هذه جزءًا أصيلاً وقانونيًا فى النظام الرئيسى للكيان الاجتماعى بكل دولة وإمارة ومدينة![(٢)].

● وجاء الملك «فردريك الثانى» - فى القرن الثالث عشر - ليشرّع للاضطهاد القوانين التى تقضى بإهدار دم الملحدين، ومصادرة أملاكهم، وإحراق غير المرتدين إلى الدين المسيحى.. وحتى سجن من تاب وعاد إلى اعتناق دينه!!.. وإعدام من عاد فارتد ملحدًا![(٣)].. - [مع ملاحظة أن الإلحاد

---

(١) المرجع السابق. ص٧٧.   (٢) المرجع السابق. ص٨٠.

(٣) المرجع السابق. ص٨٠، ٨١.

والهرطقة والردة لم تكن تعنى إلا مخالفة التقاليد الكنسية فى أية جزئية من الجزئيات!] ـ..

● ولقد توطد وشاع نظام محاكم التفتيش هذه حتى غطى كل أنحاء العالم المسيحى بشبكة لا سبيل إلى اتقائها.. تعاون فيها وعليها البابوات والقساوسة والرهبان والملوك والأمراء والعامة والدهماء.. وشهدت إنجلترا ـ فى عهد الملك «هنرى الرابع» [١٣٩٩-١٤١٣م] والملك «هنرى الخامس» [١٤١٣-١٤٢٢م] موجة من الإعدامات للمخالفين بواسطة الإجلاس على الخازوق!.. ولم يلغ هذا الأسلوب نهائيا إلا فى سنة ١٦٧٦م!.. أى أن الإعدام بالخازوق قد استمر هناك قرابة ثلاثة قرون!(١)..

● أما فى إسبانيا، فلقد بدأت محاكم التفتيش ـ التى ذاع صيتها، وضربت ببشاعتها الأمثال ـ عندما استجابت الملكة «إيزابيلا» [١٤٥١-١٥٠٤م] وزوجها الملك «فردينان» [١٤٥٢-١٥١٦م] لنصيحة الراهب الدومنيكى «هوتوركويمار» Torquemada.. فالتمسا ـ بعد هذه النصيحة ـ من البابا «سكستوس الرابع» [١٤٧١-١٤٨٤م] إصدار مرسوم لإنشاء هذه المحاكم، التى بدأت فى مدينة «قشتالة» سنة ١٤٧٨م، ثم عممت فى «أشبيلية» و«غرناطة»، وسائر مدن إسبانية وكذلك المستعمرات التى حكمها الإسبان.. ولقد صبت هذه المحاكم أبشع صنوف العذاب على المسلمين ـ وأيضا اليهود ـ المهزومين أمام جيوش «إيزابيلا» و«فردينان»، اللذين لم يحترما عهودهما ومعاهداتهما مع هؤلاء المهزومين.. فأُجبر على التنصر من ضعف من المسلمين عن تحمل العذاب.. وفر من إسبانيا من آثر التمسك بدينه.. وغرقت البلاد فى حمام من الدم الذى سفكته محاكم التفتيش(٢)..

---

(١) المرجع السابق. ص٨١.

(٢) المرجع السابق. ص٨١.

● ولمحاكم التفتيش هذه صدر القانون الذى عرف **«بفرمان الإيمان»..** **وهو القانون الذى رفع التجسس على المتهمين والضحايا إلى مرتبة الواجب الدينى الخليق بالإكبار!.. ووفق هذا القانون كان المتهم مذنبا حتى تثبت براءته - إن كان ذلك ممكنا! ... وكان على المتهم أن يقدم هو الأدلة على براءته - وهو مصفد بالأغلال، فى غيابات السجون، تحت وابل التعذيب!.. وكان القاضى هو المدعى على المتهم!.. وكل الشهود الذين يشهدون ضده - حتى ولو كانوا من القتلة واللصوص وأرباب السوابق - تُصَدَّق شهاداتهم.. وكل معارفه وخدمه وأقاربه حتى الدرجة الرابعة تُقبل شهاداتهم ضده، بينما لا تُقبل شهاداتهم إذا كانت فى صالحه!.. إذ كان المبدأ العام الذى يحكم عمل محاكم التفتيش هذه، يقول: «لأن يُدان مائة برىء زورًا وبهتانًا، ويعانوا العذاب ألوانا، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد»!!**

وعند تنفيذ أحكام هذه المحاكم، فكل من ساهم فى تقديم الوقود الذى يحرق به المحكوم عليه، فقد استحق المغفرة لما قدم من الذنوب!(١)

وإن المرء، عندما يقرأ «مبدأ قانونيًا» يقول: «لأن يُدان مائة برىء زوراً وبهتانًا، ويعانوا العذاب ألوانا، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد».. لا يسعه إلا أن يتذكر عظمة الإسلام.. وقول القرآن الكريم للمشركين:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون: ٦]

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

---

(١) المرجع السابق. ص٨٢، ٨٣.

ووصيته للمؤمنين بأهل الكتاب - الجاحدين للإسلام -:

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

ووصيته للمؤمنين بالعدل حتى مع من يكرهونهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [المائدة: ٨]

ولا يسعه - كذلك - إلا أن يتذكر - ويُذكِّر - بكلمات حجة الإسلام أبى حامد الغزالى:

«ينبغى الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلاً، فإنه لا يسارع إلى التكفير إلا الجهلة.. وإن استباحة الدماء والأموال من المصلين للقبلة، المصرحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، خطأ. والخطأ فى ترك ألف كافر أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم..»[1].

وأن يتذكر - كذلك - القاعدة الشرعية، التى أوردها الإمام محمد عبده، عندما قال:

«لقد اشتهر بين المسلمين، وعُرف من قواعد أحكام دينهم: أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر..»[2].

لابد - فى هذا المقام - من المقارنة لنعرف الفوارق بين النعمة والرحمة المهداة.. وبين النقمة واللعنة اللتين تحولت إليهما الديانة النصرانية على يد

(١) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص١٤٣.
(٢) [الأعمال الكاملة] جـ٣ ص٣٠٢.

هؤلاء «القديسين» و«البابوات» الذين سنوا هذه «المبادئ» وشرعوا هذه «القوانين»!..

● وكما كانت المحاكمة أمام محاكم التفتيش هذه ملحمة من ملاحم العذاب.. كان تنفيذ أحكامها - هو الآخر - ملحمة كبرى من ملاحم العذاب.. **فالإعدام لا ينفذ على وجه السرعة - حتى تستريح الضحية - بل كان المحكوم عليهم بالإعدام يُحرقون أحياء، بواسطة النار البطيئة الإحراق.. كما كان هذا الإحراق البطيء تسبقه مراحل من التعذيب بالكى بالنار، وذلك اختباراً لقوة تحمل الضحايا..**

بل إن اعتراف الضحية بذنبه وخطئه لم يكن ليرفع عنه نير العذاب، وإنما كان عذابه يتواصل، على أمل أن تكشف اعترافاته عن المعارف والشركاء!..

ولم تكن عقوبات هذه المحاكم تقف عند المتهمين والمذنبين، وإنما كانت تشمل أبناءهم وأحفادهم ونويهم، الذين يُسلبون حقوقهم فى تولى الوظائف، وفى امتهان الكثير من المهن.. فيترك هؤلاء الأبناء والأحفاد فريسة للجوع، أو لحياة الدعارة!..

ذلك أن البابا «إنوسنت الثالث» [١١٩٨-١٢١٦م] قد قرر مصادرة أملاك المحكوم عليهم، بحجة أن الشريعة الإلهية كثيرا ما تحاسب الأطفال على خطايا آبائهم!.. وأيد البابا «الإسكندر الرابع» [١٢٥٤-١٢٦١م] هذا القرار.. ولم يكن أمام الأبناء من سبيل للاحتفاظ بميراثهم إلا إذا خانوا آباءهم، وأفشوا أسرارهم، ووشوا بهم إلى رجال التحقيق ومحاكم التفتيش!..

حدث كل ذلك باسم «قانون الإيمان».. وباسم «خلاص» المخالفين، بتخليصهم من الحياة!.. وقام على صياغة قوانين التعذيب هذه بابوات

عظام، من مثل «إنوسنت الرابع»، الذى هندس هذا «النظام»!.. و«كليمان الرابع» [١٢٦٥-١٢٦٨م] الذى دعم هذا القانون![1]..

● أما ضحايا هذه المحاكم - فى إسبانيا وحدها - فقد بلغوا:

٣١,٠٠٠ - أحرقوا بالنار..

٢٩٠,٠٠٠ - عذبوا بعقوبات لم تبلغ حد الإعدام..

وذلك غير ضحايا هذه المحاكم الإسبانية فى المستعمرات - فى «مكسيكو» و«ليما» - بأمريكا الجنوبية - وفى «قرطاجنة» و«جزر الهند الغربية» و«صقلية» و«سردينيا» و«أوران» و«مالطة»..[2].

● أما فى بلاد الأراضى الواطئة - هولندا - .. فلقد بلغ تعداد ضحايا محاكم التفتيش - فى عهد الملك «تشارلس الخامس» [١٣٣٧-١٣٨٠م] وحده ١٠٠,٠٠٠ ضحية.. وفى عهد ابنه، بلغ عدد الضحايا ٥٠,٠٠٠ **بل إن «الديوان المقدس» قد أصدر قرارًا فى السادس عشر من فبراير سنة ١٥٦٨م بإدانة جميع السكان، والحكم عليهم بالإعدام، بتهمة الهرطقة!.. وبعد عشرة أيام صادق الملك على هذا القرار - قرار «الديوان المقدس» - وأمر بتنفيذه فى الحال، فسيق إلى المقصلة ملايين الرجال والنساء والأطفال.. واستمر هذا المسلسل حتى القرن السابع عشر الميلاد![3]..**

● وفى فرنسا، على عهد الملك «تشارلس التاسع» [١٥٥٠-١٥٧٤م]، ذبح الكاثوليك أكثر من عشرين ألفا من البروتستانت - وهما مذهبان فى دين واحد!! -.. ويومئذ انهالت التهانى على الملك، وكاد البابا «جريجورى الثالث عشر» [١٥٧٢-١٥٨٥م] يطير فرحا بهذه المذابح المقدسة وضحاياها!.. حتى

(١) [قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام] ص٨٤-٨٧.

(٢) المرجع السابق. ص٨٧. (٣) المرجع السابق. ص٨٨.

أنه أمر أن تُسك أوسمة لتخليد ذكرى هذه المجازر، وتوزع على الشعب والأعيان.. ولقد رسمت صورة البابا على هذه الأوسمة، وإلى جانبه صورة الملك «تشارلس التاسع» وهو يضرب بسيفه أعناق «الملحدين - البروتستانت»! وكتب على هذه الأوسمة عبارة: «إعدام الملحدين»..

كذلك، أمر البابا - لمزيد من الاحتفال بهذه المجازر - بإطلاق المدافع، وإقامة القداس فى شتى الكنائس، ودعا الفنانين إلى تصوير مناظر المذابح على حوائط الفاتيكان!(١)..

● وفى عهد الكاردينال «ريشليو» Richelieu [١٥٨٥-١٦٤٢م] - وزير الملك «لويس الثالث عشر»، قتل فى مدينة «لا روشيل» وحدها ١,٥٠٠ بروتستانتى..

● وفى عهد الملك «لويس الرابع عشر» [١٦٣٨-١٧١٥م] تجددت المذابح ضد البروتستانت، وخاصة بعد أن تزوج الملك من مربية كاثوليكية متعصبة!.. فسيق الكثيرون إلى الإعدام.. ومن نجا من القتل خيرهم الملك بين الارتداد عن البروتستانتية إلى الكاثوليكية وبين الهجرة والنفى من فرنسا، فهاجر نصف عدد البروتستانت - أى نحو نصف مليون - ذهبوا إلى هولندا وإنجلترا وبروسيا وأمريكا(٢)..

* * *

ولا يحسبن أحد أن هذه «**المجازر - الدينية**»، وصنوف العذابات التى مورست باسم «**الخلاص الدينى**»، قد كانت وقفا على الكاثوليك وبابواتهم وكنائسهم وملوكهم وأمرائهم.. فضحايا الكاثوليكية - البروتستانت - قد

---

(١) المرجع السابق. ص٩٧، ٩٨.

(٢) المرجع السابق. ص٩٩.

مارسوا ذات الاضطهاد والاستئصال ضد الآخرين والمخالفين.. وضد الكاثوليك بنوع خاص!..

● فعندما أتيحت «للمصلح» البروتستانتى «كلفن» [١٥٠٩-١٥٦٤م] فرصة إنشاء حكومة فى «جنيف» - جمع فيها بين السلطتين الروحية والزمنية - فرض مذهبه على الشعب بالقوة.. وأعدم المخالفين لقانون إيمانه.. ولم يستح من أن يزعم: **«أن الله يريد أن يُقصى الإنسان الرحمة بعيداً عن قلبه عندما يعتنق الجهاد فى سبيله»**!..

وبهذا لم يكن «كلفن» أقل وحشية من بابوات وملوك الكاثوليك[1]..

● وإذا كانت الكاثوليكية قد اشتهرت بمطاردة العلم والعلماء - وخاصة فى ميادين علم الفلك الحديث - فإن البروتستانتية - رغم نزعتها الإصلاحية - قد سقطت فى ذات المستنقع، فأنكرت الحقائق التى اكتشفها علم طبقات الأرض، وعلم الحياة، و«الأنثروبولوجيا»، وحظرت الجامعات الأمريكية تدريس هذه العلوم حتى القرن التاسع عشر!..

لقد رفع الكاثوليك - فى مواجهة العلم الحديث - شعار «محامى المسيحية» «ترتليان» Tertullianus [١٦٠-٢٢٠م]: **«بعد المسيح والإنجيل لسنا بحاجة إلى شىء!»**.. وجاء «مارتن لوثر» [١٤٨٣-١٥٤٦م] - زعيم البروتستانتية - رغم القرون التى تفصله عن «ترتليان».. ورغم المذهب الإصلاحى - جاء ليعتبر **«النصوص - بمعناها الحرفى الظاهر - هى المصدر الوحيد للعلوم الطبيعية كلها!».. ولقد أطلق على أرسطو [٣٨٤-٣٢٢ق.م] وصف «الخنزير الدنس الكذاب»!.. ووصف «كوبرنيكوس» [١٤٧٣- ١٥٤٣م] - وهو رائد علم الفلك الحديث - بأنه «أول منجم مأفون مصاب بمس!».. أما**

---

(١) المرجع السابق. ص١٠٦، ١٠٨.

«كلفن»، فإنه أعلن كفر كل من أنكر أن الأرض ـ وليس الشمس ـ هي مركز الكون!..

● وعلى جبهة إنكار الآخر واستئصاله، أكد «لوثر» مبدأ اضطهاد الآخرين، وإعدام كل من يخالف العقيدة البروتستانتية، وذلك في خطابه إلى «فيليب» ـ أمير «هس» ـ [المتوفى سنة ١٥٦٧م]ـ.. وجاهر بإعدام طائفة منكري التعميد Anabaptists بحد السيف، بعد انسلاخها عنه.. ووضع «كلفن» و«بيزا» Beza [١٥١٩–١٦٠٥م] و«جوريور» Jurier كتبًا أيدوا فيها مشروعية الاضطهاد للمخالفين.. واستند «نوكس» Knox [١٥٠٥–١٥٧١م] ـ باسكتلندة ـ إلى «العهد القديم» في دعوى أن العدالة تقضي باضطهاد وإعدام المخالفين، وأن من تهاون من الحكام في هذا الأمر عرّض نفسه لغضب الله!.. وأقرت ذلك «قوانين الإيمان» في المجتمعات البروتستانتية ـ سويسرا، واسكتلندا، وبلجيكا، وسكسونيا(١)..

* * *

ولقد كان للنصرانية الأرثوذكسية نصيبها ـ كآخر ـ من اضطهاد نصرانية الكاثوليك.. ففي طريق الحملات الصليبية اللاتينية الكاثوليكية لاحتلال الشرق الإسلامي، ونهب ثرواته، واحتكار ما تدر ممالكه وأوطانه من «لبن وعسل»، تحت شعارات الصليب وتخليص قبر المسيح.. في طريق هذه الحملات الزاحفة من وسط أوربا وغربها إلى الشرق الإسلامي، اجتاحت القسطنطينية ـ وطن الأرثوذكسية اليونانية ـ ومقر كنائسها وكاتيدرائياتها.. فصنعت بها وبأهلها الأرثوذكس وبمدنها وكنائسها وأديرتها وتحفها ومتاحفها ومكتباتها أسوأ مما صنعه التتار الوثنيون ببغداد عاصمة الإسلام!..

---

(١) المرجع السابق. ص١٠٩، ١١٠، ١١٢.

وإمعانا فى الموضوعية والحيدة، نترك حكاية ذلك «لشاهد من أهلها» هو «ول ديورانت» - صاحب [قصة الحضارة] - الذى يقول - فى وصف ما صنعت الحملة الصليبية الرابعة [١٢٠٢-١٢٠٤م] بالقسطنطينية -:

«لقد أقلع الأسطول العظيم، المكون من ٤٨٠ سفينة، فى أول يوم من شهر أكتوبر سنة ١٢٠٢م، وسط مظاهر الابتهاج والتهليل، بينا كان القساوسة الواقفون على أبراج السفن الحربية ينشدون نشيد: «تعال أيها الخالق الروح Veni Creator Spilritus**. ووقف هذا الأسطول الضخم أمام القسطنطينية فى الرابع والعشرين من شهر يونيه سنة ١٢٠٣م».**

فماذا فعل هؤلاء الصليبيون الكاثوليك، الذين حملتهم سفن الأسطول العظيم المكون من ٤٨٠ سفينة، والذين أنشدوا وراء القساوسة أنشودة «تعال أيها الخالق الروح»؟؟..

لقد رأوا القسطنطينية، حاضرة الأرثوذكسية اليونانية، وعاصمة كنيسة أيا صوفيا، فسال لعابهم **«لأنهم لم يكونوا يعتقدون أن فى العالم كله مدينة فى مثل هذا الثراء، حين أبصروا الأسوار الشامخة، والأبراج الضخمة التى تتألف منها. والقصور المنيفة، والكنائس العالية التى لا يحصى عددها..».**

وما كان منهم إلا أن اجتاحوا تلك البلاد **«وأخذ هؤلاء اللاتين الظافرون يعيثون فى العاصمة - القسطنطينية - كأنهم جراد منتشر ملتهم.. فانقضوا على المدينة الغنيمة فى أسبوع عيد الفصح، وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب ما لم تشهده روما نفسها على أيدى الوندال أو القوط.. ووزع الأشراف اللاتين قصور المدينة فيما بينهم، واستولوا على ما وجدوه فيها من الكنوز، واقتحم الجنود البيوت، والكنائس، والحوانيت، واستولوا على كل ما راقهم مما فيها، ولم يكتفوا بتجريد الكنائس مما تجمع فيها خلال ألف عام**

من الذهب والفضة والجواهر، بل جردوها فوق ذلك من المخلفات المقدسة، ثم بيعت هذه المخلفات بعدئذ في أوربا الغربية بأثمان عالية.

وعانت كنيسة أيا صوفيا من النهب ما لم تعانه فيما بعد على يد الأتراك سنة ١٤٥٣م. فقد قُطِّع مذبحها العظيم تقطيعا لتوزع فضته وذهبه. وكان البنادقة، وهم الذين يألفون المدينة التى كثيرا ما رحبت بهم تجارا، يعرفون أين توجد أعظم كنوزها، فاستعانوا بذكائهم الفائق على أعمال التلصص، وامتدت أيديهم إلى التماثيل، والأقمشة، والأرقاء، والجواهر، ونقلت الأربعة الجياد البرونزية التى كانت تطل على المدينة اليونانية، وجمل بها ميدان القديس مرقس - فى روما -. وكانت هذه السرقات المنظمة مصدر تسعة أعشار مجموعات الفنون والجواهر التى امتازت بها كنوز كنيسة القديس مرقس على سائر الكنائس..

وبذلت محاولة ضئيلة للحد من اغتصاب النساء، وقنع الكثيرون من الجنود بالعاهرات، ولكن شهوات اللاتين المكبوتة لم ينج منها الكبار أو الصغار، ولا الذكور ولا الإناث، ولا أهل الدنيا أو الدين، فقد أُرغمت الراهبات اليونانيات على احتضان الفلاحين أو السائسين البنادقة والفرنسيين..

وبددت فى أثناء هذا السلب والنهب محتويات دور الكتب، وأتلفت المخطوطات الثمينة أو فقدت، واندلعت ألسنة النيران بعدئذ مرتين فى المدينة فالتهمت دور الكتب والمتاحف كما التهمت الكنائس والمنازل، فضاعت مسرحيات «سفكليز» [٤٩٦–٤٠٥ق.م] و«يوريديز» [القرن الخامس ق.م] التى ظلت حتى ذلك الوقت باقية بأكملها، ولم ينج منها إلا القليل، وسرقت آلاف من روائع الفن أو شوهت أو أتلفت..

ولما خفت حدة الاضطراب والنهب، اختار أعيان اللاتين «بلدوين»، أمير «فلاندرز»، ملكا لملكة القسطنطينية اللاتينية، وجعلوا الفرنسية لغتها الرسمية، وقسمت الإمبراطورية البيزنطية إلى أملاك إقطاعية يحكم كلا منها أمير نبيل إقطاعى..

واستبدل برجال الدين اليونان غيرهم من اللاتين، رسم الكثيرون منهم قساوسة لهذه المناسبة دون أن يكون لهم تاريخ سابق فى شئون الدين!.. ووافق البابا «إنوسنت الثالث» [١١٩٨-١٢١٦م] على الاتحاد الرسمى بين الكنيستين اليونانية واللاتينية..

وعاد معظم الصليبيين إلى أوطانهم مثقلين بالغنائم، وأقام بعضهم فى الأملاك الجديدة..».

هكذا فعلت الكاثوليكية اللاتينية بالأرثوذكسية اليونانية، اجتياحًا وسلبًا ونهبًا وفسقًا وفجورًا، ومحوًا للآخر الدينى، على هذا النحو الذى فاق الخيالات!..

* * *

ولقد كان «للآخر المسلم»، يومئذ، بعض الوجود فى الإمبراطورية البيزنطية.. فنال هذا «الآخر المسلم» نصيبه من الدمار.. وبعبارة «ول ديورانت»:

«فلقد حدث فى هذه الأثناء أن رأى بعض الجنود اللاتين جماعة من المسلمين يصلون فى مسجد مقام فى مدينة مسيحية، فثارت ثائرتهم، وأشعلوا النار فى المسجد، وقتلوا المصلين، وظلت النار مشتعلة ثمانية أيام، وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال، وأحالت جزءًا كبيرًا من القسطنطينية رمادًا وأنقاضًا..»(١).

---

(١) [قصة الحضارة] المجلد الرابع. الجزء الرابع. ص٤٦-٥٣. طبعة القاهرة.

فوجود الآخر - فى نظرهم - منكر وغريب، سواء أكان هذا الآخر مذهبًا فى إطار النصرانية.. أم دينا آخر - مثل الإسلام - له مساجده، وعُبّاده الذين يصلون صلاة غير صلاة الكاثوليك اللاتين!..

ولعل الإنكار والاستنكار لوجود كنائس غير كنائسهم.. وصلوات غير صلواتهم، وإزالة وإبادة هذه المغايرة لهذا الآخر، تذكرنا بما حكاه المؤرخ والفارس والأمير «أسامة بن منقذ» [٤٨٨-٥٨٤هـ/ ١٠٩٥-١١٨٨م] الذى عاصر الوجود الصليبى اللاتينى فى القدس وفلسطين.. والذى اشتاق يومًا لرؤية القدس المحتلة، وللصلاة فى المسجد الأقصى - الذى حولوه إلى كنيسة لاتينية - فذهب إلى هناك - بصحبة بعض «فرسان الداوية»، الذين هذبتهم الإقامة الطويلة فى بلاد الشرق - فلما قام يصلى - متوجها إلى جهة الكعبة - نحو الجنوب - هجم عليه الجنود الصليبيون ليغيروا وجهته إلى الشرق!.. فكان كلما توجه إلى قبلته، أرغموه على التوجه إلى قبلتهم هم!..

يحكى أسامة بن منقذ هذا الذى حدث له - كآخر - ولقبلته - «الأخرى» - فيقول:

«فكل من هو قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلّدوا - [أى أصبحوا من أبناء البلاد] - وعاشروا المسلمين. فمن جفاء أخلاقهم، قبحهم الله، أننى كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفى جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى، وفيه الداويّة - وهم أصدقائى - يخلون لى ذلك المسجد الصغير أصلى فيه.

فدخلته يوما، فكبّرت ووقفت فى الصلاة، فهجم علىّ واحد من الإفرنج أمسكنى ورد وجهى إلى الشرق، وقال: «كذا صل»! فتبادر إليه قوم من

الداويّة أخذوه وأخرجوه عنى، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم وعاد هجم علىّ ورد وجهى إلى الشرق، وقال: «كذا صل»!. فعاد الداويّة دخلوا عليه وأخرجوه، واعتذروا إلىّ، وقالوا: «هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج هذه الأيام، وما رأى من يصلى إلى غير الشرق»، فقلت: «حسبى من الصلاة»، فخرجت، فكنت أعجب من الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة..»!(١)

إنهم لا يطيقون وجود الآخر.. لأنهم لا يتصورون إمكان وجود آخر فى الدنيا أو الدين!..

وصدق هذا الأمير الخبير بهم - أسامة بن منقذ - إذ يصفهم فيقول:

«إنهم - خذلهم الله - كالبهائم، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة فى القتال..»!(٢)

* * *

وإذا كان هذا هو حال الإنكار والاستئصال بين الكاثوليك والبروتستانت - كل منهما إزاء الآخر.. وكل واحد منهما ضد كل المخالفين له - فإن حال انتشار النصرانية - رغم أصولها الروحية المتصوفة.. ونزعتها السلمية المترهبنة - لم يكن أقل فى العنف والإبادة وإسالة الدماء ضد المخالفين..

● فالدولة الرومانية، بعد أن كانت - فى حقبة وثنيتها - تُكره النصارى على الارتداد إلى الوثنية.. أصبحت - بعد تنصرها - تُكره الوثنيين على الدخول فى دين المسيح.. وإلا فإن الجزاء هو الاضطهاد والتعذيب والإعدام

---

(١) أسامة بن منقذ [كتاب الاعتبار] ص١٣٤، ١٣٥ تحقيق: د. فيليب حتى، د. ف. طبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٣٠م.

(٢) المصدر السابق. ص٦٤.

طعامًا للأسود!.. بل لقد سلكت سبل التعذيب هذه ضد النصارى المخالفين لها في المذهب، كما حدث بين مذهبها الملكاني وبين مذهب اليعاقبة المصريين!..

● والنصرانية المصرية - التي لاقت الأمرين من الرومان - في عهد وثنيتهم وفي عهد نصرانيتهم - مارست هي الأخرى الذبح والحرق والسحل والتعذيب، وتخريب المعابد، وحرق المكتبات، وهدم دور العلم وأكاديميات الفلسفة،مع المتدينين بالديانة المصرية القديمة!.. بل ومارست ذات الاضطهاد ضد النصرانية الآريوسية الموحدة!.. حتى أن مصر - التي يضربون الأمثال بسماحتها وتسامحها - لم تعرف التعددية الدينية والتسامح مع الآخرين - عبر تاريخها الطويل - إلا بعد أن دخلت في الدولة الإسلامية، وحضارة الإسلام!.. فتسامحها سمة إسلامية، وليس صفة لصيقة بالمصريين منذ تاريخهم القديم..

● ولقد صارت هذه السنة السيئة - سنة العنف ضد الآخر، وتعذيب وإبادة المخالفين - قانونا متبعا في نشر النصرانية بربوع أوربا..

- فالملك «شارلمان» [٧٤٢-٨١٤م] فرض المسيحية على السكسونيين بحد السيف..

- وفي الدانمرك، استأصل الملك «كنوت» Cnut الديانات غير المسيحية من بلاده بالقوة والإرهاب..

- وفي بروسيا، فرضت «جماعة إخوان السيف» Bretheren of the Sward المسيحية على الناس بالسيف والنار..

- وفي ليڤونيا، فرض فرسان Drdo Fratram Militiae Christ المسيحية على الشعب فرضا..

- وفي جنوب النرويج، ذبح الملك «أولاف ترايجـفيسون» [٩٦٣ - ١٠٠٠م] كل من أبى اعتناق المسيحية، أو قطع أيديهم وأرجلهم ونفاهم وشردهم، حتى انفردت المسيحية بالبلاد..

- وفى روسيا، فرض «فلاديمير» Vladimir [٩٨٠-١٠١٥م] المسيحية الأرثوذكسية على كل الروس، سادة وعبيدا، أغنياء وفقراء، غداة اعتناقه لها.. ولم يُعترف فى روسيا - وهى أكبر بلاد الأرثوذكسية - بالتعددية الدينية المقيدة إلا فى سنة ١٩٠٥م!..

- وفى الجبل الأسود - بالبلقان - قاد الأسقف الحاكم «دانيال بيتروفتش D. Petrovich عملية ذبح غير المسيحيين - بمن فيهم المسلمين - ليلة عيد الميلاد سنة ١٧٠٣م!..

- وفى المجر، أرغم الملك «شارل روبرت» [١٣١٦-١٣٧٨م] غير المسيحيين على التنصر أو النفى من البلاد سنة ١٣٤٠م..

- وفى إسبانيا - قبل الفتح الإسلامى - كان «المجمع السادس» فى طليطلة، قد حرّم كل المذاهب غير المذهب الكاثوليكى.. وأقسم الملوك على تنفيذ هذا القانون بالقوة.. أما ما حدث هناك بعد سقوط غرناطة [٨٩٧هـ - ١٤٩٢م] فلقد سجله التاريخ فى السجل الأسود لمحاكم التفتيش..

- وفى أنطاكية، حدث نفس القهر والاضطهاد لغير المسيحيين، ولمعتنقى غير مذهب الدولة الرومانية من المسيحيين..

- وفى الحبشة، قضى الملك «سيف أرعد» [١٣٤٢-١٣٧٠م] بإعدام كل من أبى الدخول فى المسيحية الأرثوذكسية أو نفيهم من البلاد.. وصنع ذلك أيضا الملك «جون» فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى!(١)..

* * *

---

(١) أرنولد - سير توماس - [الدعوة إلى الإسلام] ص٣٠-٣٢، ٧٢، ٧٣، ١٢٢-١٢٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٣، ١٥٤-١٥٦، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤، ٢٧٦. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

هكذا تحولت المسيحية عن طبيعتها المغرقة فى السلم المتصوف والصوفية المسالمة.. وانقلبت - عندما طُوِّعت للطابع المادى للحضارة الغربية - إلى سوط عذاب للمخالفين واستئصال للآخرين.. حتى أن الغرب لم يعرف الحرية الدينية والتعددية المذهبية إلا بعد أن تخلى عن نصرانيته، وأدار ظهره - بالعلمانية واللادينية - لسلطان الدين!.. وحتى أن هذا الاضطهاد للآخر، والإنكار للاختلاف قد حرم الغرب النصرانى من إنجاب فلكى واحد على امتداد ثلاثة عشر قرنا من التدين بالمسيحية، بينما امتلأت الحياة الإسلامية بعلماء الفلك والطبيعة وغيرهما من العلوم الكونية عقب ترجمة علوم مدرسة الإسكندرية إلى العربية، على يد الأمير الأموى خالد بن يزيد [٩٠هـ - ٧٠٨م] فى النصف الثانى من القرن الهجرى الأول!.. وذلك لأن الحرية الدينية، والتعددية المذهبية، وتقرير المساواة بين المختلفين فى الحقوق والواجبات - **«لهم ما لنا وعليهم ما علينا»**، قد كانت - منذ عصر النبوة - دينا، وثمرة من ثمار حاكمية الشريعة الإسلامية، جسدتها الدولة الإسلامية وحضارة الإسلام واقعا تجسد فى الممارسات والتطبيقات..

● وإذا كنا قد أشرنا إلى صنيع النصرانية الكاثوليكية مع الآخر الإسلامى فى إسبانيا.. وكيف اجتثته عبر سلسلة من العذابات والإكراهات والإعدامات.. وإلى صنيع النصرانية الأرثوذكسية مع الآخر الإسلامى، فى البلقان، وروسيا، والحبشة.. فإن ما صنعته «النصرانية - الصليبية» الكاثوليكية مع الإسلام، عبر قرنين من الحملات الصليبية على قلب العالم الإسلامى [٤٨٩-٦٩٠هـ/ ١٠٩٦-١٢٩١م] قد جاء صفحة سوداء فى هذا السجل البائس، الذى جسد موقف هذه النصرانية الغربية إزاء الآخرين..

وإذا كنا قد تعمدنا أن تكون المصادر التى نرجع إليها - فى الحديث عن هذه الوقائع - غربية المنابع، وعالية المستوى فى مصداقيتها، فإننا نتخير

ـ فى الإشارة إلى صنيع الصليبيين مع الإسلام والمسلمين فى «القدس»، عندما اغتصبوها [٤٩٢هـ-١٠٩٩م] ـ نتخير مصدرا نصرانيا ـ هو كتاب [تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق، المدعوة حرب الصليب] ـ كتبه رجل دين نصرانى هو «العلامة مكسيموس مونروند».. وترجمه عن الفرنسية «قدس السيد كيريوكير يومكسيموس مظلوم» ـ البطريرك الأنطاكى والإسكندرى والأورشليمى وساير المشرق الروم الملكى الكاثوليكى».. وهو مصدر أصلى، ينقل الوقائع عن شهود العيان ـ ولقد تمت ترجمته سنة ١٨٤١م، وطبع فى دير الرهبان الفرنسيسكانيين سنة ١٨٦٥م ـ فى أورشليم...

فماذا يقول «الشاهد من أهلها»، عن صنيع الصليبيين الكاثوليك ـ وهو منهم ـ «بالآخر الإسلامى»، عندما اقتحموا مدينة القدس ـ التى جعلها المسلمون حرما مقدسا ـ كمكة المكرمة ـ لا يجوز فيه القتال ولا سفك الدماء، حفاظا على القداسة والمقدسات.. والتى أشاعوا قدسيتها لجميع أصحاب المقدسات؟..

لقد أورد هذا الكتاب ـ بالأسلوب الركيك الذى ناسب عربية مترجمه، و«بلاغة» عصره ـ أورد خطاب البابا الذهبى «أوربان الثانى» [١٠٨٨-١٠٩٩م] ـ مشعل الحروب الصليبية ـ فى فرسان الإقطاع الأوربيين، الذين كانوا لصوصا متوحشين وقتلة دمويين، يغير بعضهم على بعض، فدعاهم البابا إلى توجيه عنفهم الدموى إلى المسلمين «غير المؤمنين» ـ حسب تعبير البابا ـ.. وطلب منهم غسل أيديهم من الدماء الأوربية، ليس بالماء، وإنما بدماء المسلمين!!.. وذلك لوراثة أقاليم آسيا وخزائنها التى لا تُحصى.. ووراثة الأرض التى تدر لبنا وعسلا!!..

نعم، لقد خطب البابا فى هؤلاء «الفرسان الإقطاعيين»، فقال:

«يا من كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا.. لقد آن الزمان الذى فيه تحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التى أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن.. هى.. فى حق الله عينه.. وليست هى لاكتساب مدينة واحدة.. بل هى أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزاينها العديمة الإحصاء.

فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلصوا الأراضى المقدسة من أيادى المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض ـ حسب ألفاظ التوراة ـ تفيض لبنا وعسلا.. ومدينة أورشليم هى قطب الأرض المذكورة، والأمكنة المخصبة المشابهة فردوسا سماويا..

اذهبوا وحاربوا البربر ـ [يقصد المسلمين] ـ لتخليص الأراضى المقدسة من استيلايهم.. امضوا متسلحين بسيف مفاتيحى البطرسية ـ [مفاتيح الجنة التى صنعها لهم البابا] ـ واكتسبوا بها لذواتكم خزاين المكافآت السماوية الأبدية. فإذا أنتم انتصرتم على أعدايكم، فالمُلك الشرقى يكون لكم قسما وميراثا..

وهذا هو الحين الذى فيه أنتم تفون عن كثرة الاغتصابات التى مارستموها عدوانا.. ومن حيث أنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلما، فاغسلوها بدم غير المؤمنين..»!!(١)..

هكذا دعا البابا الذهبى «الفرسان ـ اللصوص» ـ بعد أن أعطاهم مفاتيح الجنة ـ إلى غسل دماء أيديهم بدماء المسلمين، وذلك لامتلاك الأرض التى تشبه خصوبتها فردوس السماء، والتى لا تحصى خزائن ثرواتها، والتى تفيض لبنا وعسلا.. فالمُلك الشرقى سيكون لهم ميراثا، إذا هم غسلوا أيديهم بدماء المسلمين ـ غير المؤمنين ـ!!..

---

(١) [تاريخ حرب الصليب] المجلد الأول ص١٣، ١٤ طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.

فكيف غسل هؤلاء «الفرسان - اللصوص» - الذين حشدت البابوية أوربا من ورائهم - أيديهم الملطخة بدماء بعضهم البعض - كيف غسلوها بدماء المسلمين؟!..

يصف الكتاب - نقلا عن شهود العيان - كيف تم ذلك، فى صفحات دامية.. نكتفى منها بسطور تقول:

«على أنه باطلا - [أى عبثا] - كان الإسلام - [أى المسلمون] - فى أورشليم، فى اليوم المذكور - [يوم دخول الصليبيين للقدس] - يجدّون مفتشين على مهرب يحمون به حياتهم، لأن هذه المدينة خلت من ملجأ لهم. فعدد كلىّ منهم قد هربوا إلى جامع عمر - [مسجد قبة الصخرة] - ظانين أنهم هناك يحمون نواتهم من الموت، ولكن ظنهم خاب، إذ إن الصليبيين - خيّالة ومشاة مختلطين - قد دخلوا الجامع المذكور، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك.

فالمؤرخون، بنوع خاص، ذموا قساوة هؤلاء الجنود البربرية عن هذا الفعل.

وحسب تقرير «رايموند ده أجيلاس»: قد طاف الجامع من الدماء حتى أنه تحت القناطر التى عند بابه احتقن الدم وعلا إلى حد الرُكَب، بل إلى لُجُم الخيل..

وقال «روبارتوس» الراهب: إن جامع عمر قد استوعب من الدم المحتقن فيه كفى بحر متموج، وذلك مما فتكت به سيوف الجيوش الصليبية أرقاب - [رقاب] - الإسلام - [المسلمين]-»[1].

هذا ما حكاه شهود العيان عن تعامل النصرانية الغربية مع الآخر المسلم.. سقناه بحروفه.. وبأسلوبه القديم..

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص١٧٢، ١٧٣.

ولم يكتف الصليبيون بذلك الذى صنعوه.. وإنما اجتمع «ديوان مشورتهم»، وقرر هذا «الديوان» إبادة جميع من بقى من المسلمين - وأيضا من اليهود - فى المدينة المقدسة.. أى إبادة جميع المخالفين!.. فأعملوا القتل والحرق والذبح فى السكان العزل أسبوعًا كاملاً.. حتى لقد شمل القتل من حصل على الأمان من بعض الأمراء الصليبيين!..

وعن هذه المجزرة، يتحدث صاحب كتاب [تاريخ حرب الصليب] فيقول:

«إن ديوان المشورة العسكرية التيم - [اجتمع] - وقطع حكما مُرْهِبًا، وهو: أن يُمات كل مسلم باق داخل المدينة المقدسة. وهذا الحكم المهيل قد تباشر بالعمل... ودامت هذه الملحمة مدة سبّت - [أى سبعة أيام] - كاملة.

والمؤرخون يتفقون على أن الإسلام - [أى المسلمين] - الذين ذبحوا داخل أورشليم بلغوا سبعين ألفا. ثم إن اليهود قد كانوا داخلين فى عدد المحكوم، لأن ألفاظ الحكم كانت بالموت ضد غير المؤمنين، بدون تمييز المسلم من اليهودى، فهؤلاء العبرانيون قد هربوا إلى كنيسهم محاصرين فيه، إلا أن الصليبيين أضرموا النار فى جهات الكنيس، فأبادوه وإياهم جملة بالحريق، ولم يبق من معبدهم هذا إلا بعض فضلاته الدالة على قديمته».

وبعد أن كانت القدس - فى ظل السيادة الإسلامية - مشاعة القدسية لكل أصحاب المقدسات، لأن الإسلام مؤتمن على كل المقدسات، لا يفرق أهله بين أحد من الأنبياء والمرسلين.. تم احتكار القدس للصليبيين اللاتين - الكاثوليك - ونهبت كل كنوزها، بما فى ذلك كنوز المساجد.. وبعبارة مؤلف كتاب [تاريخ حرب الصليب]:

«.. ومنظر أورشليم استحال بغتة إلى مشهد جديد، لأنها فى أيام قليلة انقلبت من ديانة إلى أخرى، ومن شرايع إلى غيرها، ومن مراسيم وعوايد

إلى أخرى، ومن سكان إلى غيرهم، فالغالبون، أضحوا أغنيا بالغنايم التى امتلكوها بين أيديهم.. فالقايد «تنكريد» قد امتلك جميع الغنى الذى وجد فى جامع الإمام عمر، وهذه قد كانت عظيمة المقدار والقيمة، حتى أنه ـ حسب تقرير أحد المؤرخين ـ لم تكفها ست عرابانات كبيرة لنقلها، وأنه قد استمر هو مدة يومين مباشرا إخراجها من ذاك الجامع..»

أما الجنود والقادة الصليبيون، الذين ـ كما يقول «مكسيموس مونروند» ـ **«قد كلّت أيديهم من سفك الدماء»**!![1].. فإنهم أخذوا يعبون خمور المعاصر حتى أتوا عليها، ثم ذهبوا يتضرعون إلى ربهم وهم سكارى، وأيديهم مخضبة بدماء المسلمين... ويا لها من «صلاة»، تصفها «دائرة المعارف البريطانية» ـ وهى تتحدث عن دخول القائد الصليبى «جودفرى» [١٠٦١-١١٠٠م] القدس ـ فتقول:

«كانت المذابح رهيبة. جرت دماء المغلوبين فى شوارع المدينة حتى ارتفع مستوى الدم ووصل إلى رُكَب من سار فيها. ولما حل المساء، اندفع الصليبيون يبكون من فرط الضحك!! ـ بعد أن أتوا على نبيذ المعاصر ـ إلى كنيسة القيامة، ووضعوا أكفّهم الغارقة فى الدماء على جدرانها، ورددوا الصلوات»!!!..

ذلك طرف من الثقافة اللاهوتية الغربية ـ فى العصور الوسطى ـ .. تلك التى حددت موقف الغرب من الآخر.. وعلى هذا النحو كانت ممارسات الغرب النصرانى إزاء الآخرين.. كل الآخرين..

* * *

حدث كل ذلك الضيق والاضطهاد والإنكار والاستئصال للآخر فى الغرب النصرانى، فى ذات الوقت الذى كان العالم الإسلامى يشهد ـ فى

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص١٧٤-١٧٦.

الفكر وفى الواقع المعيش - تنوعا دينيا، وتعددية مذهبية، جعلت منه «خارطة» تحكى جميع ما يخطر على العقل والقلب والفكر من تنوع واختلاف.. فغير المذاهب الإسلامية - الكلامية.. والفقهية - من: السنة بمذاهبها.. والشيعة بمذاهبها.. والأحناف.. والمالكية.. والشافعية.. والحنابلة.. والجعفرية.. والزيدية.. والأباضية.. والظاهرية.. والإسماعيلية.. والدروز.. والنصيرية.. إلخ.. إلخ.. عاشت، ولاتزال تعيش، وأسهمت فى الحضارة الإسلامية، ولاتزال تسهم كل الديانات والمذاهب السماوية والوضعية، وذلك من مثل: اليونان.. والروم - الأرثوذكس - والنساطرة الأشوريين.. والأقباط الأرثوذكس.. واليعاقبة الأرثوذكس.. والأرمن الأرثوذكس.. واليونان الروم الكاثوليك.. والسريان الروم الكاثوليك.. والأرمن الروم الكاثوليك.. والأقباط الروم الكاثوليك.. والكلدان الروم الكاثوليك.. والموارنة الروم الكاثوليك.. والبروتستانت.. والإنجيليين.. واليهود الربانيين الأرثوذكس.. واليهود القرائين.. واليهود السامريين.. والصابئة.. واليزيدية.. والشوابك.. والبهائية.. والديانات القبلية الزنجية الأرواحية.. والزرادشتيين.. والبوذية.. والكونفشيوسية.. - فى الهند والصين تحت حكم الإسلام -..

لقد عاشت وازدهرت كل ألوان الطيف الدينية والمذهبية تحت رايات الإسلام، وفى ظل حاكمية شريعته.. وقنن لبقائها ولحقوقها القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.. ووضعت الحضارة الإسلامية هذا التقنين فى الممارسة والتطبيق.

حدث هذا عندنا، ولايزال حادثا.. وحدث ذلك فى عالم النصرانية الغربية..

* * *

بل إن الغرب النصراني ـ ومن بعده الغرب العلماني ـ لم يكتف بما أجرم فى حق الآخر الغربى والنصرانى فى بلاده هو، عندما ضاق حتى بالتعددية المذهبية فى إطار النصرانية، إبان الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ـ على النحو الذى أشرنا إلى وقائعه الدامية وسجلاته السوداء ـ ولم يكتف كذلك بذبحه وإحراقه للآخر الإسلامى، عندما غزت جحافلة الصليبية قلب العالم العربى ـ على النحو الذى أشرنا إليه عندما أوردنا وصف ما اقترفه فى القدس الشريف ـ.

لم يكتف الغرب بذلك، وإنما اهتبل جميع الفرص، وسعى بكل السبل كى يفسد على الشرق الإسلامى نعمة التعددية، والتعايش بين الملل والنحل والأجناس والألوان واللغات والقوميات، ذلك التعايش الذى قننه الإسلام، وجسدته الحضارة الإسلامية فى الواقع المعيش.. إذ عمل الغرب الغازى والمستعمر، فى كل الحقب التى ابتلى فيها الشرق بغزوه واستعماره، على إفساد هذا التنوع والتعايش، وذلك بغواية واستمالة قطاعات من الأقليات الدينية الشرقية.. استمالتها بالغواية والترغيب إلى صفوف جيوشه الغازية وسلطاته الاستعمارية وأجهزة الحكم والإدارة التى أقامها فى بلادنا، حتى إذا ما سقطت هذه الشرائح فى شراك الخيانة الوطنية والقومية والحضارية، فسد التعايش بينها وبين الأغلبية المسلمة، وشب التوتر الطائفى فى ربوع الشرق، ليصبح بأس أبنائه بينهم شديداً، فيجد الغزو الغربى لأقدامه المواطئ، ولتسلله الثغرات!..

نعم، لقد لعب الغرب الاستعمارى هذه اللعبة الخطرة ـ فى حقبته الصليبية السافرة، وفى حقبته الصليبية المغلفة بالعلمانية ـ مع قطاعات من الأقليات النصرانية الشرقية.. ومع الأقليات اليهودية.. بل ومع أقليات مسلمة تميزت قوميا فى المحيط العربى.. وحققت هذه اللعبة ـ مع شديد الأسف ـ بعض النجاحات.. ولايزال الغرب يلعبها حتى هذا التاريخ!..

● ففى الحقبة الصليبية، وعقب اقتحام الصليبيين لمدينة القدس، وبعد أن ذبحوا كل المسلمين وكل اليهود، بدأت غوايتهم واستمالتهم لقطاعات من النصارى الشرقيين.. وسقطت طوائف من هؤلاء النصارى فى الشراك، حتى لقد فرحوا باحتلال نصارى مثلهم لمدينة القدس، وبانحسار السلطة الإسلامية عن هذه المدينة المقدسة!

ويحكى صاحب كتاب [تاريخ حرب الصليب] عن مسيحيى القدس، وكيف أصبح ولاؤهم للغزاة، وكيف أظهروا الفرحة بهذا الذى حدث فى مدينتهم، وكيف **«كانوا يسيرون أمام الصليبيين بدلايل الاحترام والوقار، مرتلين معهم نشايد - [أناشيد] - الخلاص من الأسر»**(1)!

ويحكى أيضا عن انتشار هذه الغواية والخيانة إلى قطاعات من النصارى الشرقيين خارج مدينة القدس.. **وكيف أن «أخبار الانتصارات التى فاز بها الصليبيون، بامتلاكهم هذه البلاد، قد انتشرت بسرعة فى الجهات القريبة إليها، ومنها إلى بلاد الشرق الأخرى. وهكذا شوهد المسيحيون متقاطرين جموعا غفيرة إلى أورشليم، من أنطاكية، ومن الرها، ومن ترسوس، ومن كيادوكيا، ومن كيليكيا، ومن بين النهرين، ومن ساير أقاليم سوريا. فالبعض من هؤلاء الغرباء - [عن القدس] - قد وطدوا سكناهم الدايمة فى أورشليم وما يحوطها، وغيرهم كانوا يزورون الأراضى المقدسة ويعودون إلى بلادهم، والجميع حاصلون على فرح عام، غير فاترين عن تقدمة الشكر لله، والتقريظات لشجاعة الصليبيين وانتصاراتهم كجنود محقين ليسوع المسيح، الذين أخيرا أنقذوا قبر ابن الله مخلص العالم من أيدى غير المؤمنين»**(2)!!

لقد ألقى الغرب الصليبى إلى بعض هذه الأقليات النصرانية الشرقية بدايات خيوط الغواية، فبدأت أولى خطوات السقوط فى الخيانة للوطن والأمة

---

(1) المجلد الأول. ص173.   (2) المجلد الأول. ص180، 181.

والحضـارة.. ومن ثم بدأت أولى مظاهر التوترات الطائفيـة، عندما اندفعت الأغلبيـة لمحاسبـة الخونة على مـا اقترفـوه فى ساعة العسرة من خيانات وتغيير للولاءات!..

● وفى سنة ١٢٥٠م شـهد هذا التخريب الصليبى للعلاقات الإسلامية النصرانيـة فى الشرق فصلا جديدا، وذلك عندما مدت الحملة الصليبية التى قـادهـا الملك ـ القـديس ـ «لويس التـاسـع» [١٢١٤-١٢٧٠م] خـيـوط الغـواية للطـائفـة المارونيـة فى لبنان.. فلقـد اسـتـقبل «لويس التـاسـع» وفـدا من هذه الطائفة، وأعطاهـم رسـالة ـ مؤرخـة فى ٢١ مـايو سنة ١٢٥٠م ـ يلحقـهم فـيها «بالأمة الفرنسـية»، بدلا من أمتهم العربية!.. وفيها يقول: **«نحن مقتنعون بأن هذه الأمة ـ [الجماعة] ـ التى تعرف باسم القديس مارون، هى جزء من الأمة الفرنسية»**(١)!.. فبدأت منذ ذلك التاريخ جذور الغواية التى لاتزال حية فيما يعرف **«بالمارونية السياسية»**، التى توجهت وتتوجه غربا، بدلا من أن تكون جزءا أصيلا فى أمتها العربية وحضارتها الإسلامية..

ومنذ ذلك التاريخ واصلت فرنسا محاولات فرنسة المارونيين، وذلك حتى **«تخلق جيشا مارونيا يتفانى فى خدمة فرنسا»**! ـ حسب تعبير أحد قناصل فرنسا فى لبنان ـ.. وبعبارة القنصل الفرنسى «دى ليتنو» De Lattenaad ـ فى مذكـرة للخـارجية الفرنسـية.. تاريخـها ٢٢ ديسـمبـر سنة ١٨٤٧م ـ: **«لجعل البربرية العربية [؟!] تنحنى لا إراديا أمام الحضارة المسيحية الفرنسية»**!!..

ذلك لأن تعليم النـاس ـ فى مدارس الإرسـاليـات ـ اللغـة الفرنسـيـة ـ وآدابها وفنونها وقيمها ـ **«لا يعنى مجرد أن تألف ألسنتهم وآذانهم الصوت الفرنسى، بل إنه يعنى فتح عقولهم وقلوبهم على الأفكار وعلى العواطف**

---

(١) محمد السماك [الأقليات بين العروبة والإسلام] ص٧٤. طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

الفرنسية، حتى نجعل منهم فرنسيين من زاوية ما.. وهذه السياسة تؤدى إلى فتح بلد بواسطة اللغة»! ـ كما يقول «بول موفلان» Paul Muvelin ـ أحد كبار اليسوعيين(١)..

● وصفحة أخرى فتحها الصليبيون ـ على جبهة الغواية لقطاعات من الأقليات الدينية العربية كى تخون أمتها وحضارتها، بدأت عندما عقد الصليبيون مع التتر حلفا غير مقدس ضد الإسلام والمسلمين، فلقد أرسلوا بعثة رأسها رجل الدين «جليوم رد بروك» إلى بلاط الخان التترى «منكوقا آن»، وفاوضت هناك على مدى ستة أشهر، لتحويل الزحف التترى عن أوربا ـ وكانت تلك وجهته ـ إلى عالم الإسلام.. ولقد استعانت هذه البعثة الصليبية على بلوغ مقاصدها بالأقلية النصرانية النسطورية التى كانت تعيش فى العاصمة التترية، وبإحدى زوجات «هولاكو» ـ «دوتوز خاتون» ـ وكانت نسطورية الديانة.. فلما توجه الزحف التترى إلى العالم الإسلامى، كانت قيادته لمسيحى نسطورى هو «كُتبغا»!..

وبعد دمار بغداد [٦٥٦هـ-١٢٥٨م] احتل التتر ـ تحت القيادة النصرانية النسطورية ـ دمشق والشام ـ وبدأت الغواية للأقلية النصرانية فى دمشق.. ولقد تحدث عن وقائع هذه الغواية والخيانة عمدة مؤرخى ذلك العصر، تقى الدين المقريزى [٧٦٦-٨٤٥هـ/ ١٣٦٥-١٤٤١م] فقال: **«واستطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرمانا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان، ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات، وصبوه على أبواب المساجد. وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب، وصاروا يمرون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم، وقالوا جهرا: «ظهر الدين الصحيح دين**

(١) المرجع السابق. ص٧٣.

المسيح»، وخرّبوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو ـ كُتبغا ـ فأهانهم وضرب بعضهم، وعظّم قَدْر قسوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم»(١).

ولقد كان طبيعيا، كرد فعل لهذه الغواية والخيانة، أن يأتى الانتقام من هذه الأقليات.. فبعد انتصار المسلمين على التتار، وفرار جيشهم وقائده «كُتبغا» فى معركة «عين جالوت» [٦٥٨هـ-١٢٦٠م] ووصول كتاب السلطان «قطز» [٦٥٨-١٢٦٠م] إلى أهل دمشق ببشرى هذا الانتصار **«بادر أهل دمشق إلى دور النصارى فنهبوها، وأخربوا ما قدروا على تخريبه»**، ونالهم من جيش قطز ما نالهم من التأديب(٢).. فكان التوتر الطائفى ثمرة من ثمار الغواية الصليبية الغربية لهذه الأقليات(٣).

● وعلى هذا الدرب ـ درب الغواية والخيانة ـ التى زرعها الغرب الصليبى فى العصور الوسطى بين الأقليات النصرانية فى بلادنا، والتى سعى بها إلى إفساد «**التنوع**» الذى عاش وازدهر «**فى إطار الوحدة**» بحضارتنا الإسلامية، بين الملل والنحل والأقوام والأجناس.. على هذا الدرب سار الغرب العلمانى فى عصره الحديث..

«فبونابرت» [١٧٦٩-١٨٢١م] عندما قاد الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣هـ-١٨٩٧م] قد أعلن وهو فى طريقه من «مرسيليا» إلى

---

(١) المقريزى [كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك] جـ١ ق٢ ص٤٢٢، ٤٣٢. تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٢) المصدر السابق. جـ١، ق٢، ص٤٣٢.

(٣) وجدير بالذكر أن صلاح الدين الأيوبى لم يسلك سبيل ردود الأفعال هذه، فبعد انتصاره على الصليبيين وتحريره المقدس سنة ١١٨٧م عامل المسيحيين الشرقيين فيها معاملة المواطنين، وأخرج منها اللاتين، وتلك كانت سياسته العامة مع نصارى الشام الذين عاشوا تحت حكم الصليبيين.

«الإسكندرية» عزمه على تجنيد ٢٠,٠٠٠ من أبناء الأقليات، ليكونوا مواطئ لأقدام حملته الاستعمارية، وثغرات لاختراق الأمن الوطنى والحضارى للأمة العربية الإسلامية..

ولقد نجحت الحملة الفرنسية فى غواية قطاع من الأقباط - سماهم الجبرتى [١١٦٧-١٢٣٧هـ/ ١٧٥٤-١٨٢٢م] - وهو عمدة مؤرخى العصر - بـ«**أراذل القبط**»، الذين خرجوا على كنيستهم، وخانوا شعبهم وحضارتهم، وكوّنوا فيلقا قبطيّا قاده «المعلم» يعقوب حنا [١١٥٨-١٢١٦هـ/ ١٧٤٥-١٨٠١م] - الذى أصبح «جنرالا» فى جيش الحملة الفرنسية، والذى سماه الجبرتى «يعقوب اللعين»!.. ولقد شارك هذا الفيلق القبطى مع الجيش الفرنسى فى فتح القرى والمدن المصرية، وفى قهر وإذلال المصريين.. بل وفى سجن وإذلال علماء الأزهر الشريف..

كذلك عهدت الحملة الفرنسية إلى هذه القلة التى خانت بالسلطة الإدارية الفعلية فى البلاد، فكان لها نصف عضوية «الديوان العام» و«الديوان الخاص».. وكذلك اختصوها بالجهاز المالى والإدارى - التنفيذى - للبلاد.. ولقد أدت هذه الغواية والخيانة إلى استطالة هذه الأقلية على الشعب والأمة.. وخاصة فى عهد الجنرال «كليبر» [١٧٥٣-١٨٠٠م] - الذى خلف بونابرت فى حكم البلاد - والذى عهد إلى المعلم يعقوب حنا - كما يقول الجبرتى - «**بأن يفعل بالمسلمين ما يشاء!**» فكان أن تكررت صنائع نصارى دمشق مع مسلميها.. «**فتطاولت النصارى - من القبط ونصارى الشوام - على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانا؟! وصرّحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين**»[١]!!..

---

(١) الجبرتى [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] جـ٥ ص١٣٤، ١٣٦. تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى، السيد إبراهيم سالم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

فكانت صفحة أخرى من الصفحات التى صنعها الغرب الاستعمارى والتى زرعت بذور التوتر الطائفى بين الملل والشرائع والديانات فى بلاد الإسلام..

ولذلك، كان دقيقا وعميقا ذلك التحليل الذى كتبه الباحث المسيحى المرموق «جورج قرم» لأسباب التوترات الطائفية التى عرضت للأقليات غير المسلمة فى بعض فترات التاريخ الإسلامى.. وهى الأسباب التى حصرها فى ثلاثة:

«**أولها**: المزاج الشخصى لبعض الخلفاء..

وثانيها: تردى الأوضاع الاقتصادية لجمهور الأغلبية المسلمة، وقيام قيادات نصرانية بوظائف الجباية، مع الظلم والنهب والصلف الذى مارسته هذه القيادات، حتى جلبت على طوائفها غضب العامة والجمهور..

وثالثها: مرتبط بفترات التدخل الأجنبى فى البلدان الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة.. فالحكام الأجانب ـ بمن فيهم الإنجليز ـ لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية فى أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب. وهذه ظاهرة نلاحظها فى سوريا أيضا، حيث أظهرت أبحاث «جب» و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات فى المجال الاقتصادى أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين فى دمشق سنة ١٨٦٠م وبين الموارنة والدروز فى جبال لبنان سنة ١٨٤٠م وسنة ١٨٦٠م. ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها، فى أماكن عديدة،

أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية التى تعاونت مع الغازى»[1].

وفى ضوء شهادة وتحليل هذا الباحث المسيحى، نقرأ كلمات الإمام محمد عبده: «**إن الحروب الصليبية، وبالأخص هجوم الصليبيين على مصر، هو الذى جعل القبط موضع الاضطهاد، بسبب أنهم أعلنوا هواهم فى جانب الصليبيين**»[2].

● وكذلك فعل الاستعمار الفرنسى فى بلاد المغرب العربى، عندما سعى إلى إفساد العلاقات بين الأمازيغ - [البربر] - وبين العرب، وإلحاق البربر بالفرنسة بدلا من العربية والشريعة الإسلامية.. فصدر أمر «المقيم العام» الفرنسى فى المغرب - المارشال «ليوتى» - ليقول: «**إنه لخطأ فاحش التصرف بشكل يساعد على إعادة إحياء العلاقة بين العرب والبربر. ولا حاجة لنا فى تعليم العربية للبربر، فالعربية هى رائد الإسلام، لأن هذه اللغة تُعلَّم من القرآن، ومصلحتنا هى أن نمدن البربر خارج دائرة الإسلام. وأما ما يتعلق باللغة، فيجب علينا أن نضمن الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية بدون واسطة**»[3]!

وفى مذكرة وجهتها «الإقامة العامة» الفرنسية - بالمغرب - إلى الحكومة الفرنسية - بباريس - فى ١٣ يونيو سنة ١٩٢٧م.. قالوا: «**إن مبدأ استقلال العرف البربرى ودوائر اختصاصه عن الشرع الإسلامى، يحقق أكبر مصلحة سياسية لفرنسا، وإن إبعاد الشرع الإسلامى من جميع بلاد البربر**

---

(١) جورج قرم [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سسيولوجية وقانونية مقارنة] ص٢١١-٢٢٤ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م - والنص فى: د. سعد الدين إبراهيم [الملل والنحل والأعراق] ص٧٢٩، ٧٣٠.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ١ ص٨٣٤.

(٣) [الأقليات بين العروبة والإسلام] ص٥٨.

بشكل نهائى ومطلق يسمح لنا فى يوم قد لا يكون بعيداً بإنشاء نظام معقول للعدلية البربرية فى اتجاه فرنسى خالص..»[1]!

وبهذه السياسة الاستعمارية تأسست «الفرانكفونية الثقافية»، التى مازالت تعمل على إفساد التعايش بين البربر والعرب فى إطار جوامع العروبة والإسلام..

● وعلى ذات الدرب - درب غواية المستعمر للأقليات - سار بونابرت مع الأقليات اليهودية، تلك التى اضطُهدت فى سائر البلاد الغربية، ولم تجد الأمن والأمان إلا فى بلاد الإسلام، حتى لقد كادت أن تندمج كل الاندماج فى الحضارة الإسلامية.. بل لقد عاملها الغرب الصليبى معاملته للمسلمين، فامتحنها بمحاكم التفتيش فى الأندلس كما امتحن المسلمين، فطردوا جميعاً من إسبانيا إلى الأقاليم الإسلامية - فى المغرب والمشرق -.. وذبحهم الغرب الصليبى مع المسلمين فى القدس عندما اقتحمتها جيوشه [٤٩٢هـ-١٠٩٩م]..

ورغم كل ذلك، ألقى بونابرت لهذه الأقليات بخيوط الغواية، كى يخونوا الأمة التى احتضنتهم وأحسنت إليهم.. فمن على أسوار «عكا» - إبان حصار بونابرت لها [١٢١٣هـ-١٧٩٩م] - أصدر القائد الفرنسى نداءه إلى يهود العالم، داعيا إياهم إلى معاونته فى بناء إمبراطوريته الاستعمارية الشرقية.. وفى هذا النداء قال لهم:

«أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد!.. إن فرنسا تقدم لكم يدها، حاملة إرث إسرائيل.. يا ورثة فلسطين الشرعيين.. إن الأمة الفرنسية.. تدعوكم إلى إرثكم، بضمانها وتأييدها، ضد كل الدخلاء..»[2]!

---

(١) المرجع السابق، ص٦٣.

(٢) محمد حسنين هيكل [المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل: الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية] الكتاب الأول، ص٣١، ٣٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.

ولقد استجابت هذه الأقليات اليهودية لنداء الاستعمار الغربى، عاضة اليد التى أحسنت إليها، وبدأت الشراكة «الإمبريالية الغربية ـ الصهيونية»، وتخلّقت المأساة التى مازالت أمتنا تعالج فصولها حتى كتابة هذه الصفحات.. مأساة أخطر التوترات التى تستنزف طاقات الأمة، وتقعدها عن التقدم والنهوض، محققة بذلك استراتيچية الغرب الاستعمارى تجاه العرب والمسلمين.

● وفى ضوء هذه الاستراتيجية الغربية: اختراق الأمن الوطنى والقومى والحضارى للشرق الإسلامى، من خلال ثغرات الأقليات ـ الدينية والقومية ـ لتمزيق الأمة وشرذمتها.. وبعبارة «موشى شاريت» ـ فى مذكراته ـ بتاريخ ١٨ مارس سنة ١٩٥٤م ـ **«فإن تحريك الأقليات هو دائما عمل إيجابى، لما ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر»**(١)!

فى ضوء هذه الاستراتيجية يجب أن تكون قراءتنا لصنيع الغرب مع الأقليات فى وطن العروبة وعالم الإسلام.. ويجب أن يكون وعينا بهذه القضية، منذ غواية الصليبيين لنصارى القدس والشام.. وحتى صدور القانون الأمريكى ـ قانون الحماية من الاضطهاد الدينى ـ سنة ١٩٩٨م..

إنه الغرب الذى عاش ينكر الآخر.. فلما قبلت حضارته ـ بعد خلعها سلطان النصرانية ـ للآخر فى بلاده.. أصبح إفساده لتعايش فرقاء التنوع والتمايز والاختلاف ـ الدينى والقومى ـ فى الشرق الإسلامى من أبرز آليات استراتيجيته لاختراق عالم الإسلام..

تلك هى حقائق التاريخ ـ القديم منه والحديث والمعاصر ـ.. والتى يتجاهلها المنافقون وغلاة العلمانيين عندما يدعون علينا ـ نحن المسلمين ـ أننا الذين تضيق صدورنا بالآخر، ولا نتقبل التعايش مع الآخرين!..

* * *

(١) د. سعد الدين إبراهيم [الملل والنحل والأعراق] ص٧٤٠-٧٤٨.

وليس بجائز لأحدٍ أن يقول: إن هذه الصفحة من صفحات الثقافة اللاهوتية الغربية وممارساتها وتطبيقاتها قد طُويت وانقضت.. فحقيقة الأمر والواقع أنها لاتزال حية وفاعلة فى هذه الثقافة اللاهوتية حتى الآن..

ففى مؤتمر **«كولورادو»** ـ الذى انعقد بأمريكا فى مايو سنة ١٩٧٨م ـ لتنصير كل المسلمين، تحدثوا ـ فى أبحاثه الأربعين وفى مناقشاتها ـ عن ضرورة اختراق الإسلام، لتنصير المسلمين من خلال الثقافة الإسلامية.. وبالاعتماد المتبادل مع الكنائس الوطنية والمحلية فى الشرق الإسلامى.. والعمالة الفنية المدنية الأجنبية فى بلادنا الإسلامية.. ومن خلال المرأة.. والطلاب المسلمين الدارسين فى الغرب.. بل وبواسطة صنع الكوارث فى المجتمعات الإسلامية، كى يهتز توازن ضحاياها، فيسهل إخراجهم من الإسلام!!..

لقد قالوا، فى هذا المؤتمر، عن الإسلام:

«إنه هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيا وسياسيا.. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، لفهم الإسلام، ولاختراقه فى صدق ودهاء..»!![1].. «ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين..»[2].. «ولذلك، فعلى مديرى إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعملها المنظم للوصول إلى المسلمين، لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى

---

(١) [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] ـ الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو ـ ص٤٥٢. طبعة مركز دراسات العالم الإسلامى ـ مالطا ـ سنة ١٩٩١م.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢، ٢٣.

والكنائس الموجودة فى العالم الإسلامى.. إن نصارى البروتستانت ـ فى الشرق الأوسط وإفريقيا وآسيا ـ منهمكون بصورة عميقة فى عملية تنصير المسلمين.. ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم.. وعلى المواطنين النصارى فى البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معا، بروح تامة، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين!..»[1].. «إذ يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصرين مقبولين من داخل مجتمعاتهم.. ويُفَضَّل النصارى العرب فى عملية التنصير.. إن تنصير هذه البلاد سوف يتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنيسة المحلية، ويتم ذلك بعد تكوين جالية محلية نصرانية قوية..»!![2]

كذلك، رسمت «بروتوكولات قساوسة التنصير» خطة لتوظيف العمالة المدنية الأجنبية فى تنصير المسلمين.. **«لأنه على الرغم من وجود منصرين بروتستانت ـ من أمريكا الشمالية ـ فى الخارج أكثر من أى وقت مضى، فإن عدد الأمريكيين الفنيين الذين يعيشون فيما وراء البحار يفوق عدد المنصِّرين بأكثر من ١٠٠ إلى ١.. وإن الأفراد الذين يملكون الخبرة الفنية يمكنهم أيضا أن يعملوا من أجل المسيح، وهذا أمر مهم،وبخاصة فى البلاد التى تمنع حكوماتها التنصير العلنى.. إنهم يستطيعون ـ ويجب ـ أن يتمموا عمل المنصرين، وذلك بالعمل معا جنبا إلى جنب لتنصير العالم الإسلامى!..»[3]**

وبدلا من مواجهة إسلام القرآن الكريم والسنة النبوية، يجبن قساوسة التنصير، فيهربون إلى مواريث وبقايا ثقافات الشعوذات والخرافات

---

(١) المصدر السابق، ص٧٨٩، ٧٩٠، ٥٣، ٥٦، ٤، ٥

(٢) المصدر السابق، ص٦٢٧، ٦٣٠، ٣٨٣، ٨٤٥.

(٣) المصدر السابق، ص٧٣٢، ٧٣٣.

والسحرة والشياطين.. ويتحدثون عن أن النساء يكثرن من الاعتقاد فى هذه التأثيرات والمؤثرات، فتنصح «بروتوكولاتهم» بالدخول إلى المرأة المسلمة من هذه «الأبواب»، وليس من باب الجدال حول العقائد التى جاء بها الإسلام فى قرآنه الكريم وسنة نبيه، عليه الصلاة والسلام.

نعم.. ينحدر إلى هذا المستنقع أولئك الذين ينتسبون إلى حضارة ألّهت العقل وأحلت العلم محل الله.. فيقولون فى هذه **«البروتوكولات التنصيرية»: «بدلا من البحث عن صراع مباشر بين الكتاب المقدس والقرآن.. دعونا نعلِّم المرأة المسلمة كيف تعيش فى سلام من ضغوط السِّحر.. ونقدم لها بديلا نصرانيا للتأثير الشيطانى الذى يهاجم النساء، وخاصة فى المجتمعات الإسلامية!.. إن النساء هن المفتاح لزرع الكتاب المقدس فى المجتمعات الإسلامية!.. أما تخطيط الأسرة - تحديد النسل - وهو عامل رئيس ومؤثر وله أهمية كبيرة ، فمن الأفضل عدم تناوله خلال المراحل المبكرة من العمل التنصيرى مع المسلمين!!..»**(١)

كذلك، يخططون لانتهاز فرص وجود الشباب المسلم الذين يدرسون فى المجتمعات الغربية، بعيدا عن المقومات والإمكانات التى تساعدهم على حماية القيم الإسلامية، وتحت الضغوط المادية وعوامل التحلل والانحلال، فيتحدثون عن ضرورة التوسل بهذه الظروف اللادينية واللاأخلاقية لتحويل هذا الشباب عن إسلامه، وزرع النصرانية فيه بدلا من الإسلام، وذلك ليكون هذا الشباب **«مشاتل»** نصرانية، يتم **«زرعها»** فى المجتمعات الإسلامية بعد عودة هذا الشباب إلى بلاده، مصحوبا بهالات العلم وتأثيرات الثقافة والمثقفين!.. وعن هذا التخطيط تقول **«بروتوكولات»** مؤتمر **«كولورادو»**: **«يتزايد باطراد عدد المسلمين الذين يسافرون إلى الغرب، ولأنهم يفتقرون**

---

(١) المصدر السابق، ص٨٨٠، ٦٤٤، ٨٣٩.

إلى الدعم التقليدى الذى توفره المجتمعات الإسلامية، ويعيشون نمطا من الحياة مختلفا - فى ظل الثقافة العلمانية المادية - فإن عقيدة الغالبية العظمى منهم تتعرض للتأثير!.. وإذا كانت تربة المسلمين فى بلادهم - بالنسبة إلى التنصير - أرضا صلبة.. ووعرة!.. أفليس بالإمكان إيجاد مزارع خصبة بين المسلمين المشتتين خارج بلادهم، حيث يتم الزرع والسقى والتهيئة لعمل فعال عندما يعاد زرعهم ثانية فى بلادهم كمنصرين؟!..»[1]

بل إن هذه **«البروتوكولات»** - المعلنة.. والموضوعة فى الممارسة والتطبيق - لا تكتفى بمحاولات اختراق الإسلام - من خلال مصطلحات القرآن وأنماط الثقافة الإسلامية - **«فى صدق ودهاء!»** -.. ولا تقنع بالعمل على اختراق عالم الإسلام من خلال الكنائس المحلية.. والعمالة المدنية الأجنبية.. والمرأة.. والشباب المبتعثين للدراسة فى البلاد الغربية.. وإنما يذهب أصحابها على الدرب اللاأخلاقى - وهم يرتدون مسوح الدين واللاهوت؟! - إلى الحد الذى يخططون فيه **«لصناعة الكوارث»** فى بلاد الإسلام، لإحداث خلل فى توازن ضحايا هذه الكوارث، كى يغيروا عقيدتهم الإسلامية، وينتقلوا إلى دين قساوسة التنصير!!.

نعم.. لقد بلغوا على الدرب اللاأخلاقى إلى الحد الذى قالوا فيه: **«لكى يكون هناك تحوّل إلى النصرانية، فلابد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس - أفرادا وجماعات - خارج حالة التوازن التى اعتادوها!.. وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعى المتدنى.. وفى غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة**

(١) المصدر السابق، ص٢٤، ٢٦، ٢٨، ٣٣٨، ٣٣٩.

إلى النصرانية!... ولذلك، فإن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمرا مهما فى عملية التنصير!!.. وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى، فأصبحت أكثر تقبلا للنصارى!!..»(١)

هكذا عملت وتعمل النصرانية البروتستانتية على تنصير كل المسلمين، وحلمت وتحلم بطى صفحة الإسلام من الوجود.. أى نفى الآخر الإسلامى، والحلول محله فى سائر أنحاء عالم الإسلام!..

وإذا كانوا قد صدَّعوا ويصدعون رؤوسنا بالحديث عن «الحوار مع المسلمين»، فإنهم يعترفون فيما نشروه من أبحاث ومناقشات مؤتمر **«كولورادو»** بأن هذا **«الحوار»** ـ عندهم ـ هو سبيل وآلية ومقدمة من المقدمات المهيئة للتنصير.. أى أن **«الحوار»** ـ الذى يريدون ـ ليس سبيلا **«للتعايش»** بين فرقاء متمايزين ومتعددين.. وإنما هو آلية من آليات نفى الآخر ووراثة الآخرين!!.. يعترفون بذلك، فيقولون: «**إن بيانات مجلس الكنائس العالمى التى تشدد على «حرية الإقناع والاقتناع» لا تلزم المجلس!!.. فالحوار ـ عند مجلس الكنائس العالمى ـ ليس بديلا عن تحويل غير النصارى إلى النصرانية.. وهذه البيانات ـ عن «حرية الإقناع والاقتناع» ـ لا تعنى تخلى المجلس عن مواقفه المناصرة «للجهود القسرية والواعية والمتعمدة والتكتيكية لجذب الناس من مجتمع دينى ما إلى آخر»!!!..»**(٢)

أى والله!.. قرروا.. وأعلنوا أن **«الحوار»** ـ الذى صدعوا رؤوسنا بالحديث عنه ـ هو سبيل من سبل إلغاء الآخر الإسلامى ـ وليس سبيلا للتعايش والتعارف والتعاون ـ .. وأن مجلس الكنائس العالمى ـ الذى يُصدِّر

(١) المصدر السابق، ص٢٤٢، ٨٢٦، ٨٢٧، ٤٦٩، ٣٦٤، ١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص٧٧٠.

لنا البيانات التى تتحدث عن «**حرية الإقناع والاقتناع**»، مستمسك - فى واقع الأمر - بالأساليب «**القسرية الواعية والمتعمدة والتكتيكية**» لتنصير الآخرين!!..

وفى موضع آخر - من هذه «**البروتوكولات**» - كرروا التعبير عن هذا الموقف، فقالوا: «**إنه بينما يوافق المنصرون على أن التحول لدين آخر لا يجب ولا يمكن أن يتم بالقوة، فإنهم مازالوا يشعرون أيضا بأننا ينبغى «أن نجبرهم على الدخول» فى النصرانية!!..**[1]

ذلك هو موقف النصرانية الغربية - البروتستانتية - من الآخر.. ومن الآخر الإسلامى على وجه الخصوص.. منذ «**مارتن لوثر**».. وحتى كتابة هذه الصفحات!!..

* * *

ولا يحسبن أحد أن الكاثوليكية الغربية بعيدة عن هذا الموقف الذى ينكر الآخر الإسلامى، ويعمل على إلغائه وطى صفحته من الوجود.. فالكاثوليكية الغربية صاحبة الثقل المؤثر فى «**مجلس الكنائس العالمى**»، الذى أشرنا إلى موقفه المنحاز إلى توظيف الحوار فى سبيل إجبار الآخر على الزوال!.. وهى صاحبة المواقف «**العملية.. والعلنية**» فى تنصير المسلمين، على امتداد بلاد عالم الإسلام.. حتى لقد تركت بيتها - أوربا - فريسة للمادية والإلحاد واللادينية واللاأدرية، وأعلنت عزمها على تنصير المسلمين، فرفعت شعار: «**إفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م**».. فلما خيب الله آمالها، زحزحت التاريخ إلى سنة ٢٠٢٥م.. وذلك بدلا من أن تنصر بيتها - أوربا والأوربيين - !..

وإذا كنا قد أشرنا إلى مواقف «**سلفها**» من الإسلام - «**توما الإكوينى**».. وأضرابه - .. فإن موقف «**خلفها**» من الآخر الإسلامى لايزال موقف العداء والإنكار والإلغاء..

---

(٢) المصدر السابق، ص٧٧٠.

فالمونسنيور **«جوزيبى برناردينى»** يصرح - بحضرة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثانى - فى سنة ١٩٩٩م - فيقول: **«إن العالم الإسلامى سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية، بما فى ذلك روما عاصمة المسيحية. فكيف يمكننا ألا نرى فى ذلك برنامجا واضحا للتوسع، وفتحا جديدا؟!..»**(١)

وفى نفس التاريخ يتحدث الكاردينال **«بول بوبار»** - مساعد بابا الفاتيكان.. ومسئول المجلس الفاتيكانى للثقافة - إلى صحيفة **«الفيجارو»** - الفرنسية - فيقول: **«إن الإسلام يشكل تحديا بالنسبة لأوربا وللغرب عموما. وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيرا ضليعا لكى يلاحظ تفاوتا متزايدا بين معدلات النمو السكانى فى أنحاء معينة من العالم، ففى البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكانى بشكل تدريجى، بينما يحدث العكس فى البلدان الإسلامية النامية. وفى مهد المسيح يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجا بشكل ما؟.. إن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، فى حين أن المسيحيين فى أوربا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع، ويتناسون الصيام الذى يفرضه عليهم دينهم، وفى الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين فى شهر رمضان!..»**(٢)

وعلى ذات المنوال، مضى الكاردينال **«جاكومو بيفى»** - أسقف مدينة بولونيا - بإيطاليا - فدعا - فى رسالته يوم ٢٠٠٠/٩/١٣م - إلى استئصال

---

(١) صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - فى ١٩٩٩/١٠/١٣م.

(٢) صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - فى ١٩٩٩/١٠/١م.

المسلمين من أوربا .. فصورة أوربا والغرب والعالم بنظره لا يمكن أن تكون متعددة الديانات.. ووفق عبارته: **«فإما أن تتحول أوربا إلى مسيحية فورا، وإلا ستكون إسلامية مؤكدا ..»**![1]

إنهم لا يطيقون وجود الآخر - والآخر الإسلامى خاصة - سواء على مستوى **«الدين»**.. أو **«الثقافة»**.. أو الرموز العبادية - المساجد - .. أو حتى المراكز الثقافية.. بل ولا حتى على المستوى الجسدى - النمو السكانى -!!..

* * *

أما النصرانية الأرثوذكسية - الغربية - فلقد اختصرت الطريق إلى نفى الآخر الإسلامى، بالمقابر الجماعية.. وحروب الإبادة، التى شنتها ولاتزال تشنها ضد الإسلام والمسلمين فى البلقان - البوسنة والهرسك وكوسوفا - وفى القوقاز - وخاصة بلاد الشيشان -.. وهى تجوب العالم عاقدة التحالفات مع الهندوسية والكونفشيوسية واليهودية ضد الإسلام والمسلمين، تحت دعاوى أن الأصولية الإسلامية هى الخطر الأعظم والأول الذى يهدد العالم الذى يريدونه بلا **«آخر»** ولا **«شريك»**!..

لقد صنعت النصرانية الغربية ذلك، ولاتزال تصنعه مع الإسلام الذى جعل التعددية الدينية وحرية الاعتقاد سنة من سنن الله، التى لا تبديل لها ولا تحويل.. فقال للمشركين عبدة الأوثان:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون: ٦]

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾ [الكهف: ٢٩]

---

(١) صحيفة «العالم الإسلامى» - مكة المكرمة - فى ٦/١٠/٢٠٠٠م.

وقال عن اليهود - فى دستور الدولة الإسلامية الأولى.. الذى وضعه وطبقه الرسول ﷺ : **«ويهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. لهم النصر والأسوة مع البر المحض.. غير مظلومين ولا مُتَنَاصَر عليهم.. وبينهم وبين المؤمنين النصح والنصيحة والبر دون الإثم..»**... كما ضمن للنصارى كامل المساواة فى حقوق المواطنة - بالدولة الإسلامية - مع ضمان الحرية الكاملة فى الاعتقاد الدينى، وفى إقامة عقائد وشعائر دينهم الذى ينكر ويكفر بالإسلام!.. **«لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم، وفيما عليهم..»**..

بل وتطوع الإسلام - فى عهد رسوله ﷺ للنصارى - فألزم الدولة الإسلامية بالمعاونة على إقامة دور العبادة - التى ينكر عُبّادها دين الإسلام! - فجاء فى هذا العهد: **«ولهم إن احتاجوا مَرَمَّة بِيَعِهم وصوامعهم أو شيئًا من مصالح أمورهم ودينهم إلى رفد من المسلمين وتقوية لهم على مَرَمَّتها، أن يُرْفَدُوا على ذلك ويُعَاوَنوا، ولا يكون ذلك دَيْنًا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله لهم..»**!..

ولقد ظل هذا الاعتراف الإسلامى بالآخر.. والتمكين له من إقامة ذاته الدينية المتميزة.. والمعاونة له على تشييد رموز دينه وعباداته.. ظل هذا الموقف الإسلامى سياسة وثقافة وممارسة إسلامية متبعة ومرعية حتى كتابة هذه السطور.. فدولة مصر المسلمة - التى يبلغ تعداد المسلمين فيها نسبة ٩٤.٥٪ من السكان، هى التى أنفقت على إقامة أكبر كاتيدرائيات النصرانية فى الشرق - كاتيدرائية الكنيسة الأرثوذكسية بالقاهرة - عندما طلب القائمون على هذه الكنيسة من الرئيس الراحل جمال عبدالناصر

[١٣٣٦-١٣٩٠هـ/ ١٩١٨-١٩٧٠م] معونة لبنائها.. فبادر إلى أن طلب من شركات البناء الحكومية تشييد الكاتيدرائية، وتوزيع تكلفتها على ميزانيات تلك الشركات![١].. فأين من هذه **«الثريا الإسلامية»** **«وحل الثرى»**، الذى طفحت به الثقافة اللاهوتية للنصرانية الغربية تجاه الإسلام والمسلمين؟!

* * *

(١) محمد حسنين هيكل: مجلة «وجهات نظر» ص١٢ ـ العدد ١٤ فى مارس سنة ٢٠٠٠م.

حضارتنا والحضارة الغربية :

من يعترف بمن؟.. ومن ينكر من؟؟

وإذا كان هذا هو حال **«الثقافة اللاهوتية»** الغربية إزاء «الآخر»، والآخر الإسلامى على وجه الخصوص.. فإن حال **«الثقافة العلمانية»** الغربية إزاء الآخر الإسلامى لم تكن أكثر إنصافا، ولا أقل فى درجات الإنكار والتشويه ومحاولات الاستئصال.. لقد اتخذت هذه الثقافة الغربية ـ فى جملتها ـ ذات الموقف الاستئصالى، عبر تاريخها الوسيط، والحديث.. والمعاصر.. وحتى كتابة هذه السطور!.. فسار **«الغرب الحضارى»** على درب **«الغرب اللاهوتى»** فى ثقافة النفى والإنكار والاستئصال.. ـ فنزعة **«المركزية الحضارية الغربية»** ـ التى صورت للغرب أنه بداية الحضارة ـ التى بدأت بالإغريق والرومان ـ وأنه نهايتها.. ونهاية التاريخ! ـ هذه **«النزعة المركزية»** قد جعلت الثقافة الغربية تنكر تنوع العالم إلى حضارات متعددة ومتمايزة ومستقلة فى ثقافاتها.. فزعمت هذه المركزية أن الحضارة الغربية هى الحضارة العالمية.. وأن العلم والتحضر قد بدأ بالإغريق، وانتهى بالنهضة الغربية الحديثة.. وأن إسهامات الآخرين ـ وخاصة المسلمين ـ لا تعدو أن تكون **«إسهامات»** ساعى البريد، الذى نقل تراث الإغريق إلى أوربا عصر النهضة والتنوير..

وبسبب من هذه النزعة المركزية الغربية، كان الاستعمار الغربى ـ وهو يبيد البنى الحضارية والثقافية للشعوب والأمم التى ابتليت بهذا الاستعمار ـ يتقمص دور صاحب «الرسالة الحضارية والإنجاز التقدمى».. فهو الأقوى.. والأقوى هو الأصلح، والأجدر بالبقاء ـ وفق قاعدة وفلسفة القانون الصراعى الذى طبقه «داروين» [١٨٠٩–١٨٨٢م] فى عالم الأحياء!.. فالطبيعى ـ وفق هذه النزعة المركزية ـ أن يصرع القوى الضعيف، وتزيل الحضارة القوية الغازية البنى الموروثة للحضارات المغزوة ـ تراث الآخر ـ وتصب العالم ـ بالتغريب.. وأخيرا بالعولمة ـ فى قالب حضارى وثقافى وقيمى وحيد..

ولقد ضمن للغرب «راحة الضمير» - أو موته! - وهو يمارس هذا العدوان على «الآخر الحضارى» - وبالذات «الآخر الإسلامى» - ذلك الميراث المشوه والعدائى الذى حفلت به ثقافته المدنية تاريخيا، على اختلاف حقولها وميادينها، إزاء الإسلام ومقدساته وأمته وحضارته.. وهو الميراث الذى لايزال فاعلا فى الإعلام الغربى.. والتعليم الغربى.. ودوائر الفكر والدراسات.. وعند صناع القرار حتى كتابة هذه الصفحات!..

ففى الثقافة الشعبية الغربية تتعلم الجماهير من «ملحمة رولاند» - حوالى سنة ١٠٠٠م - أن المسلمين يعبدون الثالوث:

١ - أبوللين Apollin..

٢ - وتيرفاجانت Tervagant..

٣ - ومحمد Mahamed..

وأن المسلمين يعظمون يوم الجمعة، لأنه يوم إلهة الحب «فينوس» Venus.. بينما المسيحيون يعظمون يوم الأحد لأنه يوم الرب!..

ولقد لعبت هذه الصورة - التى شاعت فى الثقافة الشعبية الأوربية - دورها فى تجييش أحقاد العامة والدهماء فى الحملات الصليبية ضد الإسلام وأمته وعالمه وحضارته، فتحدثت هذه الملحمة - **«ملحمة رولاند»** - عن المسلمين فقالت لهؤلاء الدهماء: **«انظروا! إلى هذا الشعب الملعون! إنه شعب ملحد، لا علاقة له بالله. وسوف يمحى اسمه من فوق الأرض الزاخرة بالحياة، لأنه يعبد الأصنام. لا يمكن أن يكون له خلاص، لقد حُكم عليه. فلنبدأ إذن تنفيذ الحكم باسم الله!..»**.. ثم تبدأ ملاحم القتال الصليبى، بعد تلاوة هذا الذى جاء فى «ملحمة رولاند»!(١)

(١) [صورة الإسلام فى التراث الغربى] ص٢٥، ٢٦، ٤٣.

والشاعر الإيطالى «دانتى» [١٢٩٥-١٣٢١م] - والذى مثل مرجعية كبرى فى الثقافة الغربية - يضع رسول الإسلام ﷺ ، وعلى بن أبى طالب، كرّم الله وجهه، فى الحفرة التاسعة فى ثامن حلقة من حلقات جهنم، **لأنهم - بنظره التنويرى! - من أهل الشجار والنفاق، الذين تقطعت أجسادهم فى سعير «الكوميديا الإلهية»!**(١)

أما «جوته» - الألمانى - [١٧٤٩-١٨٣٢م] فإن رسول الإسلام - عنده - **«قد نصب حول العرب غلافا دينيا كثيفا، وعرف كيف يحجب عنهم الأمل فى أى تقدم حقيقى!..»**(٢)

ولهذا التشويه الذى حفلت به الثقافة المدنية العلمانية الغربية - تشويه الآخر الإسلامى -.. والدعوة إلى إنكاره واستئصاله.. ولتزامل هذا الموقف الثقافى المدنى مع الموقف الثقافى اللاهوتى - فى الحضارة الغربية - رأينا امتدادات هذا الموقف تسود فى الرؤية الغربية المعاصرة للإسلام وأمته وعالمه وحضارته.. وتصبح لها تأثيراتها على صانع القرار فى المشروع الغربى، المتحالف مع المشروع الصهيونى ضد نهضة الشرق الإسلامى، وحق تقرير المصير للشعوب المسلمة، وإسلامية النموذج الحضارى فى عالم الإسلام..

فالرئيس الأمريكى الأسبق **«ريتشارد نيكسون»** - وهو من رجالات الاستراتيجية - يقول - عن صورة الإسلام والمسلمين - فى العقل الأمريكى المعاصر - : **«إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين**

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص٥٧.

كأعداء.. ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين، وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون - بالصدفة - على بعض الأماكن التى تحوى ثلثى النفط الموجود فى العالم.. وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة - حتى بالنسبة إلى الصين الشيوعية - فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم الإسلامى..

ويُحَذِّر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيبوليتيكية متطرفة، وأنه مع التزايد السكانى، والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطر كبيرة، وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدوانى للعالم الإسلامى..

ويزيد هذا الرأى: إن الإسلام والغرب متضادان، وإن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين: «دار الإسلام» و«دار الحرب»، حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية، وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب، وعلى الغرب أن يتحد مع الاتحاد السوفييتى ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة..»[1]

وإذا كان «نيكسون» قد شهد بأن الإسلام والمسلمين هم أسوأ الصور فى ثقافة أغلبية الأمريكيين.. الأمر الذى جعلهم يدعون إلى تحالف الأعداء - الليبرالية الرأسمالية والشمولية الشيوعية - أى كل الغرب - ضد الآخر الإسلامى.. فإن سقوط الشيوعية وأحزابها وحكوماتها ومعسكرها قد زاد من حدة العداء الغربى لهذا الآخر الإسلامى.. فلقد سألت مجلة **«النيوز ويك»** - الأمريكية - رئيس المجلس الوزارى الأوربى - السياسى الإيطالى البارز **«جيانى ديميكليس»**:

---

(١) ريتشارد نيكسون [الفرصة السانحة]، ص١٢٥، ١٣٨، ١٣٩ - ترجمة: أحمد صدقى مراد. طبعة دار الهلال - القاهرة سنة ١٩٩٢م.

- «ما مبررات بقاء حلف الأطلنطي - الناتو - بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالي والمعسكر الذي كان اشتراكيا؟»

- فأجاب رئيس المجلس الوزاري الأوربي:

«صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة. إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي».

فلما عاد المراسل - مراسل **«النيوز ويك»** - ليسأل:

- «وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة؟».

- لم يتردد **«جياني ديميكليس»** في أن يعلن أن الشرط هو تعميم النموذج الحضاري الغربي، وقبول المسلمين له - أي **«إلغاء الآخر الحضاري الإسلامي»**.. فقال:

«ينبغي أن تحل أوربا مشاكلها، ليصبح النموذج الغربي أكثر جاذبية وقبولا من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم، وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي فإن العالم سيصبح مكانا في منتهى الخطورة..»!(1)

فالمطلب الغربي هو **«إلغاء الآخر الحضاري الإسلامي»** - سلما - بقبول المسلمين للنموذج الحضاري الغربي - أو حربا - بواسطة آلة الحرب الأطلنطية إذا هم لم يتنازلوا عن نموذجهم الحضاري الخاص!..

أما مجلة «شئون دولية» Internatioal Affairs - التي يصدرها المعهد الملكي للشئون الدولية - بجامعة **«كامبردج»** - البريطانية - فإنها تقدم التفسير

(1) «الأهرام» عدد ١٧ يوليو سنة ١٩٩٠م - من مقال: فهمي هويدي «من يعادي من؟» - وهو ينقل عن عدد «النيوز ويك» الصادر في يوليو سنة ١٩٩٣م.

الثقافى والحضارى لإعلان كثير من مؤسسات المشروع الغربى أن الإسلام هو العدو، الذى حل محل **«إمبراطورية الشر الشيوعية»**: فإذا بجوهر أسباب هذا الإعلان لهذا العداء هو رفض الإسلام وعالمه التخلى عن النموذج الثقافى والحضارى المتميز، واستعصاء الإسلام على الذوبان فى النموذج العلمانى الغربى!.. **فلهذا السبب أصبح الإسلام «من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة..**

لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفييتى. وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز فى المتناول!..

إن أوربيين كثيرين يتساءلون عما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلمانى مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام فى المجال السياسى والاجتماعى يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحى/ الغربى الذى يميز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها فى ديمقراطية علمانية؟

إن النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع، والتى تقول: إن المجتمع الصناعى والعلمى الحديث يقوض الإيمان الدينى، صالحة على العموم.. لقد تناقص التأثير السياسى والسيكولوجى للدين، عمليا، فى كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة، وأشكال مختلفة.. لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جدا من هذا!.. فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هى سيطرة قوية، وهى بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت. إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعا ما، والأمر المدهش هو أن هذا

يظل صحيحا فى ظل مجموعة مختلفة من النظم السياسية، فهو صحيح فى ظل نظم راديكالية (ثورية) اجتماعيا، وهو صحيح أيضا فى ظل النظم التقليدية.. وهو صحيح بالنسبة إلى النظم التى تقف بين النوعين..

إن وجود تقاليد محلية للإسلام.. قد مكن العالم الإسلامى من أن يفلت من المعضلة التى أرقت مجتمعات أخرى «غير متطورة»، أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال.. معضلة إضفاء الطابع المثالى على الغرب ومحاكاته.. لقد امتلك الإسلام مقومات الإصلاح الذاتى، باسم الإيمان المحلى، وذلك هو التفسير الأساسى لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة..

إن الإسلام، من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى لمجتمعات يسودها مذهب اللاأدرية وفتور الهمة واللامبالاة، وهى آفات من شأنها أن تؤدى إلى هلاك تلك المجتمعات ماديا، فضلا عن هلاكها المعنوى..»(١)

فامتلاك الإسلام مقومات التجدد الذاتى، ومعالم المشروع النهضوى المؤمن، هو الذى جعله مستعصيا على العلمنة، واستثناء - من بين ثقافات الجنوب - فى رفض التغريب والذوبان فى النموذج العلمانى الغربى، الذى ربط الديمقراطية بالعلمنة التى تفصل بين ما لله وما لقيصر!.. ولذلك، كان إعلان الغرب: «أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية»(٢).

---

(١) مجلة «شئون دولية» - لندن - عدد يناير سنة ١٩٩١م - ففى هذا العدد «ملف» عن الإسلام، فيه دراسة عن «المسيحية والإسلام» لإدوارد مورتيمر، والثانية عن «الإسلام والماركسية» لإرنست جيلنر.

(٢) هذه العبارة نص تصريح «ويلى كلايس»، الأمين العام لحلف الأطلنطى فى منتصف تسعينيات القرن العشرين.

والتهديد بتوجيه آلة الحرب الأطلنطية إلى العالم الإسلامى، الرافض للنزعة المركزية الحضارية الغربية، التى لا تريد فى العالم سوى نموذجها الحضارى.. **وبعبارة «جيانى ديميكليس»: «أن يصبح النموذج الغربى أكثر جاذبية وقبولا من جانب الآخرين فى مختلف أنحاء العالم. وإذا فشلنا فى تعميم ذلك النموذج الغربى فإن العالم سيصبح مكانا فى منتهى الخطورة..»!!**

فإما تغريب العالم.. وإلغاء **«الآخر الحضارى»**.. وإما المواجهة، على اختلاف آلياتها وميادينها!..

* * *

ولهذه الحقائق، التى أعلنتها وتعلنها **«النصوص الغربية»**.. ومن قبلها جسدتها وتجسدها **«الممارسات الغربية»** والرافضة للآخر **«الدينى»** و**«الحضارى»**، كانت قراءتى مختلفة لما كتبه **«صامويل. ب. هانتنجتون»** عن «صدام الحضارات».. **فالرجل - كمفكر استراتيجى - يهودى الديانة - أمريكى الجنسية - قريب من دوائر صنع القرار - لم يكن «داعيا ومبشرا» بصدام الحضارات، وإنما كان «كاشفا» عن موقف الغرب الذى يمارس - تاريخيا وحاليا - صدام الحضارات..**

وإذا كنا - فى **«التاريخ الحى والفاعل»** قد تعرضنا لاستعمار الغرب - غزوا عسكريا.. وقهرا حضاريا.. ونهبا اقتصاديا.. وتغريبا ثقافيا - لأكثر من أربعة عشر قرنا!!.. عشرة منها بدأت بالإسكندر الأكبر [٣٥٦-٣٢٤ق.م] واستمرت حتى التحرير الإسلامى الذى أزال - بالفتوحات الإسلامية - امتدادات غزوة الإسكندر الأكبر.. وقرنان من هذا الغزو الغربى عشناهما فى ظل حروب الفرنجة - **«الحملات الصليبية»**، ودولها وكياناتها الاستيطانية [٤٨٩-٦٩٠هـ/ ١٠٩٦-١٢٩١م].. وأكثر من قرنين مازلنا نعالج آثار الغزوة

الغربية فيهما - منذ حملة بونابرت [١٧٦٩-١٨٢١م] على مصر، وحتى كتابة هذه السطور [١٢١٣-١٤٢١هـ/ ١٧٩٨-٢٠٠١م].. بل إن عمر هذه الموجات الاستعمارية الغربية ضد الشرق يمكن أن يبلغ ستة عشر قرنا - لا أربعة عشر - إذا نحن أضفنا مرحلة الالتفاف حول العالم الإسلامى، واستعمار شرقى آسيا - والتى بدأت عقب سقوط غرناطة [٨٩٧هـ-١٤٩٢م] وحتى غزو بونابرت لقلب العالم العربى.

إذا كانت هذه هى **«الممارسة الغربية»** ضد **«الآخر الإسلامى»**، فإن **«هانتنجتون»** ليس بمخترع لهذا الذى مارسه الغرب عبر هذا التاريخ الطويل.. وإنما الرجل كان - فى الحقيقة - **«كاشفا»** عن هذه النزعة الصراعية الغربية ضد الإسلام وعالمه.. وهذا هو معنى عبارته: **«إن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية والإسلامية يدور منذ ١٣٠٠ عام»**..

لكن، لأن **«هانتنجتون»** ملتزم بمصالح الغرب، وابن لليهودية - التى تمثل مع التراث المسيحى البعد الروحى للحضارة الغربية - فلقد حاول تمييع الموقف، عندما جعل هذا الصراع موقفا مشتركا، وفعلا متبادلا بيننا وبين الغرب، على حين كنا نحن الضحايا لهذه النزعة المركزية الحضارية الغربية، ولهذه الفلسفة الصراعية - التى مثلت ولاتزال - جزءا من البنية العضوية والروح السارية فى الحضارة الغربية.. وهو - **«هانتنجتون»** - بهذا الموقف، لا يزيف الحقيقة فقط، وإنما يتجاهل موقف الإسلام وأمته وحضارته إزاء **«الآخر»**.. بل ويتجاهل رفض الإسلام للفلسفة الصراعية، وتبنيه - بدلا منها - لفلسفة **«التدافع»**، الذى هو حراك سياسى ودينى وفكرى واجتماعى، يصحح مواقف الظلم والجور والخلل، ليعيد علاقات الفرقاء المتمايزين والمختلفين إلى نقطة العدل والتوازن، دون أن يذهب - بالصراع - إلى **«صَرْع»** الآخر وإلغائه، وأيضا دون أن يتبنى موقف السكون والسلبية، الذى يدع العالم ومجتمعاته غابة يفترس الأقوياء فيها

الضعفاء.. فالإسلام رافض لمذهب الصراع وفلسفته.. ومنحاز إلى التدافع الحضارى وفلسفته، لأن التعددية والتمايز والاختلاف والتنوع - بنظر الإسلام - سنة من سنن الله الكونية والتكوينية، فى مختلف ميادين الوجود والحياة.. فالأحدية فقط هى للذات الإلهية.. وما عدا ومن عدا الذات الإلهية قائم على سنة وفلسفة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف.. وإذا كان الصراع هو مقبرة التعددية:

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) ﴾ [الحاقة: ٧-٨]

فإن فلسفة الإسلام مع التدافع، ولا يمكن أن تكون مع الصراع.. وصدق الله العظيم إذ يقول لرسوله ﷺ:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت: ٣٤]

وأخيرا.. فإن **«هانتنجتون»** - كمستشار مؤتمن لصانع القرار الغربى - قد أشار على **«قومه»** بترتيب الأولويات فى معارك صراع الغرب مع الآخرين.. فدعاهم إلى البدء بكسر شوكة الحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشيوسية - الصينية - مع تحييد الحضارات الأخرى حتى يفرغ الغرب من الإسلام والصين، وبعد ذلك يستدير الغرب للصدام والصراع مع الحضارات التى حيَّدها، والتى أبت تبنى النموذج الغربى، والذوبان فى التغريب(١).

* * *

(١) انظر دراستنا [الحضارات العالمية: تدافع أم صراع؟] - سلسلة «فى التنوير الإسلامى» طبعة نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٩٨م.

وبعــد ..

فلقد رأينا - عبر هذه الصفحات - موقف الإسلام من الآخر.. عندما رأى التنوع والاختلاف والتمايز سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل..

● فالناس: شعوب وقبائل وأمم وجماعات، ليتعارفوا ويتعايشوا..

● وهم - فى الألسنة واللغات - يختلفون ويتمايزون.. أى أنهم قوميات متعددة ومتنوعة.. واختلافهم هذا آية من آيات الله، سبحانه وتعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) ﴾ [الروم: ٢٢]

● وهم - فى الملل والشرائع الدينية - مختلفون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾

[المائدة: ٤٨]

● وصورة العالم - فى الرؤية الإسلامية - أنه **«منتدى حضارات وثقافات»**، لأن اختلاف المناهج - الذى قرنته الآية القرآنية باختلاف الشرائع - هو التعبير القرآنى عن سنة التنوع والاختلاف فى الثقافات والحضارات.. فالناس سعيهم شتى:

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل: ٤]

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٨]

ذلك هو موقف الإسلام من التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف.. الذى تأسس عليه موقف الإسلام من الآخر، على النحو الذى رأيناه فى **«صورة الآخر الدينى»** - يهوديا.. ونصرانيا - بل وكذلك الديانات الوضعية التى عاملها المسلمون - منذ صدر الإسلام - معاملة أهل الكتاب، وذلك عملا بما رواه عبدالرحمن بن عوف عن الرسول ﷺ: **«سنوافيهم سنة أهل الكتاب»**.. وفى صورة **«الآخر الحضارى»**.. و**«الآخر القومى»**.. و**«الآخر الثقافى»**.. عندما رأى الإسلام وأمته وحضارته العالم **«منتدى ديانات وثقافات وقوميات وحضارات»**، تتفاعل وتتعاون وتتعارف فيما هو مشترك إنسانى عام، وتتمايز وتختلف وتتنوع فيما هو من الخصوصيات الثقافية والهويات الحضارية والدينية..

على حين رأينا موقف اليهودية التلمودية والتوراتية من الأغيار - كل الأغيار - .. وموقف النصرانية الغربية من الإسلام.. وموقف النزعة المركزية الحضارية الغربية من الآخر الحضارى والثقافى، وخاصة عندما يكون إسلاميا..

لقد ضاق صدر الغرب حتى بالتعددية المذهبية داخل النصرانية ذاتها .. فامتدت الحروب الدينية بين الكاثوليكية والبروتستانتية أكثر من قرنين!.. واشتهر منها إحدى عشرة حربا - [١٥٦٢- ١٥٦٣م] و[١٥٦٧-١٥٦٨م] و[١٥٦٩- ١٥٧٠م] و[١٥٧٢- ١٥٧٣م] و[١٥٧٤-١٥٧٦م] و[١٥٧٦- ١٥٧٧م] و[١٥٨٠م] و[١٥٨٥- ١٥٩٤م] و[١٥٨٦م] و[١٦٢١م] و[١٦٢٥- ١٦٢٩م]..

ولقد هلك وأبيد فى هذه الحروب - داخل الدين الواحد - نحو ٤٠٪ من شعوب وسط أوربا!.. أى نحو عشرة ملايين - حسب إحصاء الفيلسوف الفرنسى «**فولتير**» [١٦٩٤-١٧٧٨م]![(١)] - بينما لم يتعد عدد الذين قتلوا فى جميع غزوات وحروب الإسلام ضد الشرك والمشركين، طوال غزوات رسول الله ﷺ من شهداء المسلمين وقتلى المشركين - ٣٨٦ قتيلا.. فقط لا غير!!..

ولو أن المشركين تركوا المسلمين وما يدينون، ولم يفتنوهم فى دينهم، ولم يخرجوهم من ديارهم، لما أسال الإسلام قطرة دم واحدة من «**الآخرين**»..

* * *

(١) انظر فى هذه الحروب الدينية: ول ديورانت [قصة الحضارة] المجلد السادس. جـ٣ و٤. ترجمة د. عبدالحميد يونس. طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م وسنة ١٩٧٢م. و: توماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص٣٠ - ٣٢، ٧٢، ٧٣، ١٢٢ - ١٢٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٣، ١٥٤ - ١٥٦، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤، ٢٧٦. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م. و: بطرس البستانى [دائرة المعارف] - مادة الحروب الدينية - طبعة القاهرة الأولى. و: هاشم صالح «التنوير الأوربى.. ردة فعل للاقتتال المذهبى» - صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - فى ٢٦/٢/٢٠٠٠م.

ومع كل هذا الذى أشرنا إليه ـ عن موقف الإسلام من الآخر.. وموقف الآخرين من الإسلام ـ نرى دعاوى المفترين والمنافقين تترى.. واضعة الإسلام وأمته وحضارته فى قفص الاتهام.. حتى لقد أصبح الكذب فى هذه القضية مصدرا يرتزق منه الكذبة والمنافقون.. وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) ﴾ [الواقعة: ٨٢]

فمن هو الذى يعترف بمن؟.. ومن الذى يتخذ من الآخر موقف الإنكار، وموقع الاستئصال؟!..

* * *

وإذا كانت الحقيقة ـ فى الموقف من الآخر قد وضحت ـ.. والإجابة عن هذا السؤال قد اتضحت.. فجدير بنا أن ننبه على حقيقة أخرى، تتألق بها عظمة الإسلام وإنصافه وعدله وإنسانيته.. وهى حرص الإسلام على عدم التعميم والإطلاق فى الحكم والتقويم للآخر ـ كل آخر ـ فمع هذا الذى قاله غير المسلمين فى الإسلام وصنعوه بالمسلمين، يدعو القرآن الكريم إلى عدم التعميم فى الحكم عليهم.. فيقول:

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥]

فيجب ألا نضع هؤلاء فى سلة الملعونين:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩]

وكذلك الحال مع النصارى.. فمنهم من قال عنهم القرآن الكريم:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) ﴾

[المائدة: ٨٢-٨٣]

ومنهم الذين بلغ بهم الغلو حد الكفر والشرك:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٣]

وكذلك الحال مع الغرب الحضارى.. إذ يجب أن نميز فى الغرب بين:

● الإنسان الغربى.. وهذا لا مشكلة بين الإسلام وبينه.. بل إنه يفتح قلبه وعقله لقضايانا العادلة.. بل ولدين الإسلام، إذا نحن نجحنا فى تبليغ الدعوة.. وإقامة الحجة.. وإزالة الشبهة عن قضايانا وعقائد ديننا..

● والعلم الغربى - وخاصة منه العلوم الطبيعية والدقيقة والمحايدة - وكذلك الخبرات والنظم التى حققت الحضارة الغربية فيها تراكما معرفيا هائلا وعظيما.. فلابد من طلب هذا العلم، والسعى لتحصيل هذه الحكمة، التى هى ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها، لأنها مشترك إنسانى عام..

● أما المشكلة - كل المشكلة - فهى مع المشروع الغربى، الذى يريد إلغاء المشروع الإسلامى.. أى الذى يريد إلغاء الآخر الحضارى للأمم والشعوب غير الغربية.. وفرض النموذج الحضارى الغربى على العالمين..

فالتمييز بين فصائل الآخر وتياراته.. فريضة إسلامية، يقتضيها العدل والإنصاف.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾

[الممتحنة: ٧-٩]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [المائدة: ٨]

* * *

وإذا جاز لنا أن نختم هذه الصفحات **«بشهادات غربية»** على عمق الموقف الغربى الرافض للآخر الإسلامى.. فإننا نكتفى بشهادة جنرال بريطانى، وكاتب فى تاريخ العرب والفتوحات الإسلامية، هو **«جلوب»** باشا [١٨٩٧-١٩٨٦م]، الذى أعلن أن مشكلة الغرب مع الشرق إنما ترجع إلى ظهور الإسلام، فقال: **«إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»؟!....**

وشهادة عميد الاستشراق الفرنسى المعاصر «جاك بيرك» [١٩١٠-١٩٩٥م] الذى تحدث عن الرفض الغربى.. والإنكار.. والاستبعاد.. والاتهام للإسلام.. فقال: **«إن الإسلام، الذى هو آخر الديانات السماوية الثلاث، والذى يدين به أزيد من مليار نسمة فى العالم، والذى هو قريب من الغرب جغرافيا، وتاريخيا، وحتى من ناحية القيم والمفاهيم.. قد ظل، ويظل حتى هذه الساعة، بالنسبة للغرب: ابن العم المجهول، والأخ المرفوض.. والمنكور الأبدى.. والمبعد الأبدى.. والمتهم الأبدى.. والمشتبه فيه الأبدى»!!**(١)

وهى «شهادات» يثنى عليها، ويؤكدها المفكر القومى العربى «ميشيل عفلق» [١٣٢٨-١٤٠٩هـ/ ١٩١٠-١٩٨٩م] عندما يقول: **«إن أوربا اليوم، كما كانت فى الماضى، تخاف على نفسها من الإسلام.. وإن المنافسة بين الغرب والأمة العربية سببها الدور الحضارى الذى جاء به الإسلام.. والحروب الصليبية لم تنته بعد، وصيغتها الأخيرة هى الكيان الصهيونى.. فلقد أصبحت اليهودية - بقوة الصهيونية فى الغرب - جزءا عضويا فى جسم**

---

(١) من حديث لجاك بيرك - فى ١٩٩٥/٦/٢٧م - انظر: حسونة المصباحى «العرب والإسلام فى نظر المستشرق الفرنسى جاك بيرك» - صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - فى ٢٠٠٠/١١/١م.

الغرب، وحليفا لمحارية الإسلام.. ومنذ قرون عديدة، والغرب الاستعمارى يخوض صراعا تاريخيا ضد الإسلام والأمة العربية، بدافع التعصب الدينى والعنصرى وحب الاستغلال والهيمنة.. ولقد أصبح الغرب اليوم أشد عداء للعرب والإسلام، منذ وجد فى الصهيونية ضالته المنشودة.. وهذه الشراكة بين الغرب والصهيونية هى أخطر بكثير من مجرد تحالف سياسى، إذ إنها تستند إلى شراكة حضارية ثقافية عميقة، عمرها مئات السنين..»[1]

نعم.. لقد توحدت قبضة الغرب فى مواجهة الإسلام..

● فالمشروع الصهيونى بدأ مشروعا بروتستانتيا غربيا.. ثم تبنته الإمبريالية الغربية ـ العلمانية ـ ضد الإسلام ووطن العروبة وعالم الإسلام.. وها هو التحالف **«الغربى ـ الصهيونى»** ـ ضد الإسلام وأمته وحضارته وعالمه ـ يكتمل بابتزاز الصهيونية للكاثوليكية الغربية.. حتى غدت تطلب الغفران من اليهود، فى ذات الوقت الذى تعلن فيه حرب التنصير ضد الإسلام والمسلمين!..

● وبعد سقوط الخيار الاجتماعى الماركسى، توحدت قبضة الغرب الليبرالى.. ورأو ذلك نهاية التاريخ، الذى يجب أن يفرض على الآخر ـ وبالذات الآخر الإسلامى ـ بصدام وصراع الحضارات!..

ومع ذلك.. وبالرغم منه.. يتحدث الكذبة والمنافقون ـ من الغربيين والمتغربين ـ عن عداء الإسلام للآخر.. وإنكار المسلمين وتكفيرهم ونفيهم للآخرين!..

---

(١) ميشيل عفلق [فى سبيل البعث] جـ١ ص١٣٠، ٢٠٢ وجـ٣ ص٩٨، ٢٧٠ طبعة بغداد سنة ١٩٨٦ ـ سنة ١٩٨٧م. وطبعة دار الطليعة ـ بيروت سنة ١٩٧٤م. وانظر كتابنا [التيار القومى الإسلامى] ص١١٩-١٢٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م.

وثـائــق ..

١ ـ وثيقة دستور دولة المدينة ـ على عهد رسول الله ﷺ ـ وفيها تقنين التعددية الدينية فى الرعية والأمة.. والنص على أن «يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم.. وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم..» وهذا الدستور ـ [الصحيفة ـ الكتاب] يتحدث عن «الآخر الدينى» فى أربع عشرة مادة من بين مواده الاثنتين والخمسين.

٢ ـ معاهدة الرسول ﷺ مع نصارى نجران، وفيها أن لهم ولسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم ـ ومنها خمس وثائق ـ.

٣ ـ معاهدة عمر بن الخطاب مع أهل «أيليا» ـ [بيت المقدس] ـ وفيها تأمينهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم وعقائدهم وكنائسهم وصلبانهم..

١ ـ الصحيفة ـ الكتاب (سنة ١هـ سنة ٦٢٢م)

[١] هذا كتاب من محمد النبى، رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

[٢] أنهم أمة واحدة من دون الناس.

[٣] المهاجرون من قريش على رِبَعَتهم[1] يتعاقلون بينهم[2]، وهم يَفْدون عانِيَهم[3] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[٤] وبنو عوف على رِبَعَتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[٥] وبنو الحارث بن الخزرج على رِبَعَتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[٦] وبنو ساعدة على رِبَعَتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[٧] وبنو جُشَم على رِبَعَتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[٨] وبنو النجار على رِبَعَتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[٩] وبنو عمرو بن عوف على رِبَعَتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) أى على أمرهم الذى كانوا عليه.

(٢) العاقلة: الدية، التى تجب على العاقلة ـ أى عصبة القاتل ـ والمراد: دية القتل الخطأ.

(٣) العانى: الأسير.

[١٠] وبنو النَّبيت على ربَعَتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[١١] وبنو الأوس على ربَعَتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[١٢] وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا[١] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل[٢].

[١٣] وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

[١٤] وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٣] ظلم، أو إثما، أو عدوانا، أو فسادا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم.

[١٥] ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.

[١٦] وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

[١٧] وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصر عليهم.

[١٨] وأن سِلْم المؤمنين واحدة، لا يُسَالِمُ مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

(١) المفرح - بضم الميم وسكون الفاء وفتح الراء -: المثقل بالدين، والكثير العيال.

(٢) العقل: الدية.

(٣) الدسيعة: العطية، أى طلب أن يدفعوا له عطية على سبيل الظلم.

[١٩] وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا.

[٢٠] وأن المؤمنين يُبيئ[1] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

[٢١] وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

[٢٢] وأنه لا يجير مشركٌ مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن.

[٢٣] وأنه من اعتبط[2] مؤمنا قتلا عن بيّنه فإنه قَوَدٌ[3] به، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل[4]، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

[٢٤] وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثا[5] أو يُؤويه، وأن من نصره، أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

[٢٥] وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

* * *

[٢٦] وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

[٢٧] وأن يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلّم وأثم، فإنه لا يوتغ[6] إلا نفسه وأهل بيته.

[٢٨] وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

---

(١) يبيئ: ـ من البواء ـ أي المساواة.

(٢) اعتبط مؤمنا: أي قتله بلا جناية جناها، ولا ذنب يوجب قتله.

(٣) القود ـ بفتح القاف والواو ـ : القصاص.

(٤) العقل: الدية.

(٥) المحدث: مرتكب الحدث.. الجناية.. الذنب.

(٦) يوتغ: يهلك.

[٢٩] وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

[٣٠] وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

[٣١] وأن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.

[٣٢] وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

[٣٣] وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظَلَم وأثِم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

[٣٤] وأن جَفْنَة بَطْن من ثعلبة كأنفسهم.

[٣٥] وأن لبني الشُّطَيْبَة(١) مثل ما ليهود بني عوف، وأن البرّ دون الإثم.

[٣٦] وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

[٣٧] **وأن بطانة يهود كأنفسهم.**

[٣٨] وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

[٣٩] وأنه لا يَنْحَجِزُ على ثأر جُرْحٍ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته، إلا من ظَلِم، وأن الله على أبَرِّ هذا.

[٤٠] **وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبِرّ دون الإثم.**

[٤١] وأنه لا يأثم امْرُؤٌ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

[٤٢] وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

---

(١) في [نهاية الأرب] للنويري: «الشطنة» ـ بضم الشين مشددة، وضم الطاء.

[٤٣] وأن يثرب حرام(١) جوفها لأهل هذه الصحيفة.

[٤٤] وأن الجار كالنفس، غير مُضَارّ ولا آثم.

[٤٥] وأنه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها.

[٤٦] وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حَدَث، أو اشتجار يُخَاف فسادُه، فإن مَرَدَّهُ إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبَرّه.

[٤٧] وأنه لا تُجَارُ قريشٌ ولا من نَصَرها.

[٤٨] وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

[٤٩] وإذا دُعُوا إلى صلح يُصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دَعَوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين.

[٥٠] على كل أناس حِصَّتهم من جانبهم الذى قِبَلهم.

[٥١] وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، **مع البِرّ المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبرّه.**

[٥٢] وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظَلَم وأثم، وأن الله جارٌ لمن بَرّ واتقى، ومحمد رسول الله(٢). ١٠هـ

---

(١) أى حرم.

(٢) انظر نص هذه الوثيقة فى [سيرة ابن هشام] و[نهاية الأرب] للنويرى. وهى محققة فى [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص١٥-٢١ جمعها وحققها د. محمد حميد الله الحيدر آبادى. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

٢ ـ معاهدته صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمدٌ النبى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأهل نَجران: إذ كان عليهم حكمُه فى كل ثمرةٍ، وفى كل صَفراءَ وبَيضاء ورقيقٍ، فأفضلَ ذلك عليهم، وتَرَكَ ذلك كلَّه لهم، على ألفى حُلَّة من حُلَلِ الأواقى؛ فى كل رَجَب ألف حُلَّة، وفى كل صَفَر ألف حُلَّة، مع كل حُلَّة أوقية من الفضة. فما زادتْ على الخَراج، أو نَقَصَتْ عن الأواقى فبالحساب. وما قَضَوْا من دروعٍ، أو خيلٍ، أو ركابٍ، أو عروضٍ أخِذَ منهم بالحساب. وعلى نَجران مؤنَة رُسُلِى، ومتعتُهم، ما بين عشرين يومًا فما دون ذلك، ولا تُحبَس رُسُلِى فوق شهر

وعليهم عارية؛ ثلاثين درعًا، وثلاثين فَرَسًا، وثلاثين بعيرًا، إذا كان كيد باليمن ومَعرَّة. وما هَلَك مما أعاروا رُسُلِى؛ من دروعٍ، أو خيلٍ، أو ركابٍ، أو عروضٍ، فهو ضمين على رُسُلِى، حتى يؤدُّوه إليهم.

ولنجران وحاشيتها، جِوار الله وذِمَّة محمدٍ النبى رسولِ الله؛ على أموالهم، وأنفسهم، ومِلَّتهم، وغائبِهم، وشاهدِهم، وعشيرتهم، وبِيَعِهم، وكلٌّ ما تحت أيديهم مِن قليل أو كثير، لا يُغيَّر أُسقُف من أُسقفيَّته، ولا راهب من رهبانيَّته ولا كاهن من كهانته. وليس عليهم دنية، ولا دمُ جاهلية. ولا يُحشَرون، ولا يُعشَرُون، ولا يطأ أرضَهم جيشٌ. ومن سأل منهم حقًّا؛ فبينهم النَّصف غير ظالمين ولا مظلومين.

---

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص١١١، ١١٢.

ومن أكل ربًا من ذى قَبَلٍ؛ فذمَّتى منه بريئة. **ولا يُؤخَذ رجلٌ منهم بظُلم آخرَ.**

وعلى ما فى هذا الكتابِ جوارُ الله، وذِمَّة محمدٍ النبى رسول الله، حتى يأتى اللهُ بأمره، ما نَصَحوا وأصلَحوا ما عليهم، غير مثقَلين بظُلم.

شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلانُ بن عمرو، ومالكُ بن عوفٍ من بنى النَّضر، والأقرعُ بن حابسٍ الحنظليّ، والمغيرةُ بن شعبةَ.

وكتب لهم هذا الكتابَ؛ عبدُ الله بن أبى بكر.

لأبى الحارث بن علقمة أسقف نجران

[بسم الله الرحمن الرحيم]

[(1)]من محمدٍ النَّبى، إلى الأسقُف أبى الحارث، وأساقفة نَجرانَ، وكهنَتهم، ومَن تبعهم، ورهبانهم:

إنّ لهم ما تحتَ أيديهم، من قليل وكثير من بِيَعهم، وصلواتهم، ورهبانيتهم، وجوارَ الله ورسوله. لا يُغيَّر أُسقف من أُسقفيّته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته. ولا يغيّر حقّ من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه. [على ذلك جوار الله ورسوله أبدًا]؛ ما نصحوا واصطلحوا فيما عليهم، غير مثقَلين بظلم ولا ظالمين.

وكتب المغيرة.

---

(1) المصدر السابق، ص١١٥.

كتاب من النبى صلى الله عليه وسلم لأهل نجران(١)

[بسم الله الرحمن الرحيم]

هذا كتاب أمان من الله ورسوله؛ للذين أُوتوا الكتاب من النصارى، مَن كان منهم على دين نجران، أو على شىء من نِحَل النصرانية. كتبه لهم محمدُ بن عبدالله، رسولُ الله إلى الناس كافةً؛ ذمَّةً لهم من الله ورسوله، وعهداً عهده إلى المسلمين مِن بعده. عليهم أن يعُوه، ويعرفوه، ويؤمنوا به، ويحفظوه لهم، ليس لأحد من الولاة، ولا لذى شيعة من السلطان وغيره نقضه، ولا تعدِّيه إلى غيره، ولا حمل مؤونة من المؤمنين، سوى الشروط المشروطة فى هذا الكتاب. فمن حفظه ورعاه ووفى بما فيه، فهو على العهد المستقيم والوفاء بذِمَّة رسول الله، ومَن نكثه وخالفه إلى غيره وبدّله فعليه وزره؛ وقد خان أمان الله، ونكث عهده وعصاه، وخالف رسوله، وهو عند الله من الكاذبين، لأنّ الذِّمَّة واجبة فى دين الله المفترض، وعهده المؤكد. فمن لم يرعَ خالف حرمها، ومن خالف حرمها فلا أمانة له، وبرئ الله منه، وصالحُ المؤمنين.

فأما السبب الذى استوجب أهلُ النصرانية؛ الذمةَ من الله ورسوله والمؤمنين؛ فحقٌّ لهم لازم لمن كان مسلماً، وعهدٌ مؤكّد لهم على أهل هذه الدعوة، ينبغى للمسلمين رعايته، والمعونة به، وحفظه، والمواظبة عليه، والوفاء به، إذ كان جميع أهل الملل، والكتب العتيقة، أهلَ عداوةٍ لله ورسوله، وإجماع بالبغضاء والجحد للصفة المنعوتة فى كتاب الله؛ من توكيده عليهم فى حال نبيّه، وذلك يؤذن عن غشّ صدورهم، وسوء مأخذهم، وقساوة قلوبهم، بأن

---

(١) المصدر السابق، ص١١٧-١٢٢.

عملوا أوزارهم وحملوها، وكتموا ما أكده الله عليهم فيها؛ بأن يُظهروه، ولا يكتموه، ويعرفوه، ولا يَجحدوه. فعملَت الأمم بخلاف ما كانت الحجة به عليهم؛ فلم يرعوه حقَّ رعايته، ولم يأخذوا في ذلك بالآثار المحدودة، وأجمعوا على العداوة لله ورسوله، والتأليب عليهم، والتزيين للناس التكذيب، والحجة ألا يكون الله أرسله إلى الناس بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، يبشر بالجنة مَن أطاعه، ويُنذر بالنار مَن عصاه. فقد حملوا من ذلك أكثر ما زيّنوا لأنفسهم من التكذيب، وزينوا للناس [من مخالفة] فعله، ودفعِ رسالته؛ وطلبِ الغائلة له، والأخذِ عليه بالمرصاد، فهمّوا برسول الله؛ وأرادوا قتله، وأعانوا المشركين من قريش وغيرهم على عداوته، والمماراة في نقضه وجحوده، واستوجبوا بذلك الانخلاع من عهد الله، والخروج من ذِمّته. وكان من أمرهم في يوم حُنَينٍ، وبني قَيْنُقاع، وقُريظة، والنضير، ورؤسائهم، ما كان من موالاتهم أعداء الله من أهل مكة على حرب رسول الله، ومظاهرتهم إياهم بالمادّة من القوة والسلاح، إعانةً على رسول الله وعداوةً للمؤمنين

خلا ما كان من أهل النصرانية؛ فلما لم يُجيبوا إلى محاربة الله ورسوله، لِما وصفهم الله مِن لين قلوبهم لأهل هذه الدعوة، ومسالمة صدورهم لأهل الإسلام، وكان فيما أثنى اللهُ عليهم في كتابه، وما أنزله مِن الوحي؛ أن وصف اليهودَ وقساوة قلوبهم، ورقّة قلوب أهل النصرانية إلى مودّة المؤمنين فقال: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ... ...** ﴾. وذلك أنّ أناساً من النصارى، وأهل الثقة والمعرفة بدين الله، أعانونا على إظهار هذه الدعوة، وأمدّوا الله ورسوله فيما أحبّ؛ من إنذار الناس وإبلاغهم ما أرسل به.

وأتانى السيدُ، وعبدُ يشوع، وابنُ حجرة، وإبراهيم الراهب، وعيسى الأسقف، فى أربعين راكبًا من أهل نجران، ومعهم من جلّة أصحابهم، ممن كان على مِلَّة النصرانية فى أقطار أرض العرب وأرض العجم، فعرضتُ أمرى عليهم، ودعوتُهم إلى تقويته وإظهاره، والمعونة عليه، وكانت حجة الله ظاهرةً عليهم، فلم ينكصوا على أعقابهم، ولم يولّوا مُدبِرين، وقاربوا ولبثوا، ورضوه وأرفدوا وصدّقوا، وأبْدَوْا قولاً جميلاً ورأيًا محموداً، وأعطونى العهودَ والمواثيقَ؛ على تقوية ما أتيتُهم به، والردّ على مَن أبى وخالفه؛ وانقلبوا إلى أهل دينهم، ولم ينكثوا عهدهم، ولم يبدّلوا أمرهم، بل وفوا بما فارقونى عليه، وأتانى عنهم ما أحببتُ من إظهار الجميل، وحلافهم على حربهم من اليهود، والموافقة لمن كان مِن أهل الدعوة؛ على إظهار أمر الله، والقيام بحجّته، والذبّ عن رُسُله، فكسّروا ما احتجّ به اليهود فى تكذيبى، ومخالفة أمرى وقولى.

وأراد النصارى من تقوية أمرى، ونصبوا لمن كرهه، وأراد تكذيبه وتغييره، ونقضه وتبديله وردّه. وبعث الكتبَ إلىّ كُلُّ مَن كان فى أقطار الأرض، من سلطان العرب من وجوه المسلمين، وأهل الدعوة بما كان من تجميل رأى النصارى لأمرى، وذبّهم عن غزاة الثغور فى نواحيهم، والقيام بما فارقونى عليه وقبلتُه، إذ كان الأساقفة والرهبان لذلك منّة قوية فى الوفاء بما أعطونى من مودّتهم وأنفسهم، وأكدوا من إظهار أمرى، والإعانة على ما أدعو إليه وأريد إظهاره؛ وأن يجتمعوا فى ذلك على مَن أنكر، أو جحد شيئًا منه، وأراد دفعه وإنكاره، وأن يأخذوا على يديه ويستدلّوه، ففعلوا واستدلّوا واجتهدوا؛ حتى أقرّ بذلك مُذعِنًا، وأجاب إليه طائعًا أو مُكرَهًا، ودخل فيه

منقادًا [أو] مغلوبًا، محاماةً على ما كان بيني وبينهم، واستقامة على ما فارقوني عليه، وحرصًا على تقوية أمري، ومظاهرتي على دعوتي. وخالفوا في وفائهم اليهودَ والمشركين من قريش، وغيرهم. ونزّهوا نفوسهم عن رقة المطامع التي كانت اليهود تتّبعها وتريدها؛ من الأكل للربا، وطلب الرشا، وبيع ما أخذه الله عليهم بالثمن القليل ﴿ **فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾. فاستوجب اليهودُ ومشركو قريش وغيرهم، أن يكونوا بذلك أعداء الله ورسوله لِما نَوَوه من الغشّ، وزيّنوا لأنفسهم من العداوة، وصاروا إلى حرب عوان، مغالبين مَن عاداني، وصاروا بذلك أعداء الله ورسوله وصالحِ المؤمنين. وصار النصارى على خلاف ذلك كله، رغبةً في رعاية عهدي، ومعرفة حقّي، وحفظًا لما فارقوني عليه، وإعانةً لمن كان من رُسُلي في أطراف الثغور، فاستوجبوا بذلك رأفتي ومودّتي، ووفائي لهم بما عاهدتُهم عليه، وأعطيتُهم من نفسي، على جميع أهل الإسلام، في شرق الأرض وغربها، وذِمّتي، مادُمْتُ وبعد وفاتي إذا أماتني الله، ما نَبَتَ الإسلامُ، وما ظهرتْ دعوةُ الحق والإيمان، لازمٌ ذلك من عهدي للمؤمنين والمسلمين، ما بَلّ بحرٌ صوفة، وما جادت السماءُ بقطرة، والأرض بنباتٍ، وما أضاءت نجومُ السماء، وتبيّن الصبحُ للسارين، ما لأحدٍ نقضُه، ولا تبديله، ولا الزيادة فيه، ولا الانتقاص منه، لأنّ الزيادة فيه تُفسِد عهدي، والانتقاص منه ينقض ذِمّتي ويلزمني العهد بما أعطيتُ من نفسي، ومَن خالفني من أهل مِلّتي، ومَن نكث عهد الله عز وجل وميثاقه؛ صارت عليه حجة الله، وكفى بالله شهيدا.

وإنّ السبب في ذلك ثلث (كذا) نفر من أصحابه، سألوا كتابًا لجميع أهل النصرانية؛ أمانًا من المسلمين، وعهدا ينجز لهم الوفاء بما عاهدوهم،

وأعطيتموه إياه من نفسي، وأحببتُ أن أستتم الصنعة في الذ ـة، عند كل مَن كـانت حـاله حـالي، وكفّ المؤونة عنّي، وعن أهل دعـوتـي في أقطار أرض العرب، ممن انتحل اسم النصرانية وكان على مللها، وأن أجعل ذلك عهدا مرعيًّا، وأمرًا معروفًا، يمتثله المسلمون، ويأخذ به المؤمنون. فأحضرتُ رؤساءَ المسلمين، وأفاضلَ أصحابي، وأكدتُ على نفسي الذي أرادوا، وكتبتُ لهم كتابًا: يحفظ عند أعقاب المسلمين، مَن كان منهم سلطانًا أو غير سلطانٍ. فإنّ على السلطان إنفاذ ما أمرتُ به، ليستعمل بموافقة الحق الوفاء، والتخلي إلى من [التمس] عهدي، وإنجاز الذِمّة التي أعطيتُ من نفسي، لئلا تكون الحجة عليه مخالفة أمري، وعلى السوقة أن لا يؤذوهم، وأن يكملوا لهم العهد الذي جعلتهُ لهم، ليدخلوا معي في أبواب الوفاء، ويكونوا لي أعوانًا على الخير، الذي كافيتُ به مَن استوجب ذلك منّي، وكان عونًا على الدعوة. وغيظًا لأهل التكذيب والتشكيك، ولئلا تكون الحجة لأحد من أهل الذِّمّة على أحد ممن انتحل ملّة الإسلام، مخالفةً لِما وضعتُ في هذا الكتاب: والوفاء لهم بما استوجبوا منّي واستحقّوا، إذ كان ذلك يدعو إلى استتمام المعروف. ويَجرّ إلى مكارم الأخلاق، ويأمر بالحُسنَى، وينهى عن السوء. وفيه اتّباع الصِّدق، وإيثار الحق إن شاء الله تعالى.

وكتب سِجلاً نسخَتُهُ[1]

[بسم الله الرحمن الرحيم]

هذا كتاب: كتبه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، رسولُ الله إلى الناس كافةً، بشيراً ونذيراً، ومؤتمنًا على وديعة الله فى خَلقه، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرُّسُل والبيان، وكان عزيزًا حكيما.

للسيد ابن الحارث بن كعب، ولأهل مِلَّته، ولجميع مَن ينتحل دعوة النصرانية فى شرق الأرض وغربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، معروفها ومجهولها، كتابًا لهم عهداً مرعيًا، وسِجلاً منشوراً، سُنَّةً منه وعدلاً، وذِمَّةً محفوظةً؛ مَن رعاها كان بالإسلام متمسكًا، ولما فيه من الخير مستأهلاً، ومن ضيّعها ونَكث العهدَ الذى فيها، وخالفه إلى غيره، وتعدَّى فيه ما أمرتُ، كان لعهد الله ناكثًا، ولميثاقه ناقضًا، وبذِمّته مستهينًا، وللعنته مستوجبًا، سلطانًا كان أو غيره، بإعطاء العهد على نفسى، بما أعطيهم عهد الله وميثاقه، وذِمّة أنبيائه وأصفيائه، وأوليائه من المؤمنين والمسلمين، فى الأوّلين والآخرين: ذمتى وميثاقى وأشدَّ ما أخذ الله على بنى إسرائيل من حق الطاعة وإيثار الفريضة، والوفاء بعهد الله؛ أن أحفظ أقاصيهم فى ثغورى بِخَيلى ورَجلى، وسلاحى وقوّتى، وأتباعى من المسلمين، فى كل ناحية من نواحى العدوّ، بعيداً كان أو قريبًا، سِلمًا كان أو حَربًا، **وأن أحمى جانبهم، وأذبّ عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السّياح، حيث كانوا من جبل، أو وادٍ، أو مغار، أو عمران،**

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٣-١٢٨.

أو سهل، أو رمل، وأن أحرس دينهم وملَّتهم أين كانوا؛ مِن بَرٍّ أو بحر، شرقًا وغربًا، بما أحفظ به نفسى وخاصَّتى، وأهل الإسلام من ملَّتى، وأن أدخلهم فى ذِمَّتى وميثاقى وأمانى، من كل أذًى ومكروه، أو مؤونة، أو تبعة، وأن أكون من ورائهم، ذابًّا عنهم كلَّ عدو؛ يُريدنى وإياهم بسوء، بنفسى، وأعوانى، وأتباعى، وأهل ملَّتى. وأنا ذو السلطنة عليهم، ولذلك يَجب علىّ رعايتهم وحفظهم مِن كل مكروه، ولا يصل ذلك إليهم، حتى يصل إلىّ وأصحابى الذابّين عن بيضة الإسلام معى، وأن أعزل عنهم الأذى فى المؤن التى يحملها أهل الجهاد من الغارة والخَراج، إلا ما طابتْ به أنفسهم. وليس عليهم إجبار ولا إكراه على شىء من ذلك، ولا تغيير أسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا سائح عن سياحته، ولا هدم بيت من بيوت بِيَعهم، **ولا إدخال شىء من بنائهم فى شىء من أبنية المساجد، ولا منازل المسلمين،** فمن فعل ذلك فقد نَكث عهدَ الله، وخالف رسوله، وحال عن ذِمَّة الله. وأن لا يحمل الرهبان والأساقفة، ولا مَن تعبّد منهم، أو لبس الصوف، أو توحّد فى الجبال والمواضع المعتزلة عن الأمصار شيئًا من الجزية أو الخراج، وأن يقتصر على غيرهم من النصارى، ممن ليس بمتعبّد ولا راهب ولا سائح على أربعة دراهم فى كل سنة، أو ثوب حبرة، أو عصب اليمن، إعانة للمسلمين وقوةً فى بيت المال. وإن لم يَسهل الثوب عليهم طلب منهم ثمنه، ولا يقوّم ذلك عليهم إلا بما تطيب به أنفسهم. ولا تتجاوز جزية أصحاب الخراج، والعقارات، والتجارات العظيمة فى البحر والأرض، واستخراج معادن الجوهر والذهب والفضة، وذوى الأموال الفاشية والقوة؛ ممن ينتحل دين النصرانية، أكثر من اثنى عشر درهمًا من الجمهور فى كل عام، إذا كانوا

للمـواضـع قـاطنين وفـيـهـا مـقـيـمـين، ولا يطلب ذلك من عـابر سـبـيل ليس من قُطّان البلد، ولا أهل الاجتياز ممن لا تُعرَف مواضعه. **ولا خراج ولا جزية إلا [على] مَن يكون فـى يده مـيـراث من مـيـراث الأرض، ممن يجب عليـه فـيـه للسلطان حق، فيؤدّى ذلك على ما يـؤدّيه مثله، ولا يجار عليه، ولا يحمل منه إلا قدرَ طاقتـه وقوته على عمل الأرض وعمارتها وإقبال ثمـرتها، ولا يكلّف شططًا، ولا يُتـجاوز به حدّ أصـحـاب الخراج من نظرائه. ولا يكلّف أحد من أهل الذمّة منهم الخروجَ مع المسلمين إلى عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقـران، فإنه ليس على أهل الذمّة مـباشـرة القتـال، وإنما أعطوا الذمّة علىّ، على أن لا يـكلّفـوا ذلك. وأن يكون المسلمـون ذبّابًا عنهم، وجواراً من دونهم، ولا يُكرهوا على تجهيز أحد من المسلمين إلى الحرب الذى يلقون فيه عدوهم، بقـوة وسلاح أو خيل، إلا أن يتبرعوا من تلقـاء أنفسهم، فيكون مَن فـعل ذلك منهم وتبرع به، حُمد عليه وعرف له، وكوفئ به.**

ولا يُجبـر أحد ممن كان على ملّة النصـرانية كرهًا على الإسلام. ولا تجـادلوا [أهـل الكتـاب] إلا بـالتى هـى أحـسـن. ويُخـفض لـهم جناح الرحـمـة ويُكفّ عنهم أذى المكروه حيث كانوا، وأين كانوا من البلاد.

وإن أجرم أحدٌ من النصـارى، أو جنى جنايةً؛ فـعلى المسلمين نصـره، والمنع والذبّ عنه، والغرم عن جريرته، والدخول فى الصلح بينه وبين من جنى عليه، فـإما من عليه، أو يـفادى به. ولا يرفضـوا، ولا يخذلوا، ولا يتركوا هملاً، **لأنى أعطيتهم عهد الله على أنّ لهم مـا للمسلمين، وعليـهم ما على المسلمين. وعلى المسلمـين مـا عليـهم بـالعـهـد الذى استـوجـبـوا حق الذمـام، والذبّ عن الحرمـة، واستوجبوا أن يُذبّ عنهم كل مكروه، حتى يكونوا للمسلمين شـركاء فيما لهم، وفيما عليهم.**

ولا يحملوا من النكاح شططًا لا يريدونه، ولا يُكره أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يضارّوا في ذلك إن منعوا خاطبًا وأبَوا تزويجًا، لأنّ ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، ومسامحة أهوائهم، إن أحبّوه ورضوا به. إذا صارت النصرانية عند المسلم، فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواها في الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك، فمن خالف ذلك وأكرهها على شيء من أمر دينها، فقد خالف عهدَ الله وعصى ميثاق رسوله، وهو عند الله من الكاذبين.

ولهم إن احتاجوا في مرمّة بِيَعهم وصوامعهم، أو شيء من مصالح أمورهم ودينهم، إلى رفد من المسلمين وتقوية لهم على مرمّتها، أن يُرفدوا على ذلك ويعاوَنوا، ولا يكون ذلك دَينًا عليهم، بل تقويةً لهم على مصلحة دينهم، ووفاءً بعهد رسول الله موهبة لهم، ومنّةً لله ورسوله عليهم.

ولهم أن لا يلزم أحد منهم، بأن يكون في الحرب بين المسلمين وعدوهم؛ رسولاً، أو دليلاً، أو عونًا، أو متخبرًا، ولا شيئًا مما يُساس به الحرب، فمن فعل ذلك بأحد منهم؛ كان ظالمًا لله ولرسوله عاصيًا، ومن ذمّته متخليًا. ولا يَسَعه في إيمانه، إلا الوفاء بهذه الشرائط التي شرطها محمدُ بن عبد الله، رسولُ الله لأهل ملّة النصرانية، **واشترط عليهم أمورًا يجب عليهم في دينهم التمسك والوفاء بما عاهدهم عليه. منها: ألا يكون أحد منهم عَيْنًا ولا رقيبًا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين في سرّه وعلانيته، ولا يأوى منازلهم عدوّ للمسلمين، يريدون به أخذ الفرصة وانتهاز الوثبة، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا في شيء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يرفدوا أحدًا من أهل الحرب على المسلمين، بتقوية لهم بسلاح**

ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم، وأن يقْرُوا مَن نزل عليهم من المسلمين ثلاثة أيام بلياليها فى أنفسهم ودوابّهم، حيث كانوا وحيث مالوا، يبذلون لهم القِرى الذى منه يأكلون، ولا يكلّفوا سوى ذلك؛ فيحملوا الأذى عليهم والمكروه. **وإن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم، وعند منازلهم، ومواطن عباداتهم، أن يؤووهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشوا به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم، ولا يظهروا العدوَّ على عوراتهم، ولا يخلوا شيئًا من الواجب عليهم.**

فمن نكث شيئًا من هذه الشرائط وتعدّاها إلى غيرها فقد برئ من ذِمّة الله وذِمّة رسوله. وعليهم العهود والمواثيق التى أُخذت عن الرهبان وأخذتُها، وما أخذ كل نبى على أمته من الأمان والوفاء لهم وحفظهم به، ولا ينقض ذلك ولا يغيَّر حتى تقوم الساعة إن شاء الله.

وشهد هذا الكتاب الذى كتبه محمدُ بن عبد الله، بينه وبين النصارى الذين اشترط عليهم، وكتب هذا العهد لهم: عتيقُ بن أبى قحافة، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، على بن أبى طالب، أبو ذرّ، أبو الدرداء، أبو هريرة، عبدالله بن مسعود، العباس بن عبد المطلب، الفضل بن العباس، الزبير ابن العوام، طلحة بن عبيد الله، سعد بن معاذ، سعد بن عبادة، ثُمامة بن قيس، زيد بن ثابت، ولده عبد الله، حرقوص بن زهير، زيد بن أرقم، أسامة ابن زيد، عمار بن مظعون، مصعب بن جبير، أبو الغالية (كذا)، عبدالله بن عمرو بن العاص، أبو حذيفة، خوات بن جبير، هاشم بن عتبة، عبدالله بن خُفاف، كعب بن مالك، حسان بن ثابت، جعفر بن أبى طالب.

وكتب معاويةُ بن أبى سفيان.

٣ ـ معاهدة مع أهل بيت المقدس[١]

[بسم الله الرحمن الرحيم]

هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل أيليا من الأمان:

أعطاهُم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. أنه لا تُسكَن كنائسهم ولا تُهدَم، ولا ينتقص منها ولا مِن حيِّزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرَهون على دِينهم ولا يضارّ أحد منهم. ولا يَسكن بأيليا معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل أيليا أن يعطوا الجزيةَ كما يُعطِي أهل المدائن. وعليهم أن يُخرِجوا منها الروم واللُّصوص. فمن خرج منهم فإنه آمِنٌ على نفسه وماله حتى يَبلغوا مأمَنَهم، ومن أقام منهم فهو آمِنٌ، وعليه مثل ما على أهل أيليا من الجزية، ومن أحب من أهل أيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيعهم وصلبهم؛ فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان؛ فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل أيليا من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله. فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبى سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة.

(١) المصدر السابق، ص٣٤٥-٣٤٦.

المصادر والمراجع

● القرآن الكريم..

● كتب السنة..

● العهد القديم..

* ابن عبد البر [الدرر فى اختصار المغازى والسير] تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

* ابن عبدالحكم [فتوح مصر وأخبارها] طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

* أرنولد ـ توماس [الدعوة إلى الإسلام] ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د.عبدالحكيم عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

* أسامة بن منقذ [كتاب الاعتبار] تحقيق: د. فيليب حتى، د. ف. طبعة جامعة برنستون ـ الولايات المتحدة ـ سنة ١٩٣٠م.

* إسرائيل شاحاك [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ترجمة: حسن خضر. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

* بطرس البستانى [دائرة المعارف] طبعة القاهرة الأولى.

* د. توفيق الطويل [قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٤١٢هـ سنة ١٩٩١م.

* الجبرتى [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى، السيد إبراهيم سالم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

* جورج قرم [تعدد الأديان ونظم الحكم] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.

* د. سعد الدين إبراهيم [الملل والنِحَل والأعراق: هموم الأقليات فى الوطن العربى] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

* عادل المعلم [التوراة والقرآن: مقارنة نصية] طبعة القاهرة سنة ١٤٢٠هـ/ سنة ١٩٩٩م.
* عبدالوهاب المسيرى (دكتور) [موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.
* على بن أبى طالب (الإمام) [نهج البلاغة] طبعة دار الشعب. القاهرة.
* الغزالى (أبو حامد) [الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة مكتبة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.
* القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] طبعة دار الكتب المصرية.
* مؤتمر كولورادو (وثائق) [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] طبعة مركز دراسات العالم الإسلامى. مالطا سنة ١٩٩١م.
* محمد حسنين هيكل [المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ـ الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية] الكتاب الأول ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.
* محمد حميدالله (دكتور) ـ (تحقيق) ـ [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
* محمد السماك [الأقليات بين العروبة والإسلام] طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.
* محمد عبده (الإمام) [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.
* محمد عمارة (دكتور) [التيار القومى الإسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م.
[الحضارات العالمية: تدافع أم صراع؟] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م.
[الإسلام والتعددية: التنوع والاختلاف فى إطار الوحدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م.
[الأقليات الدينية والقومية: تنوع ووحدة؟ أم تفتيت واختراق؟] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م.

[الحملة الفرنسية فى الميزان] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م.
[الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.
* مراد وهبه (دكتور) [المعجم الفلسفى] طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م.
* م. روزنتال، ب. يودين [الموسوعة الفلسفية] ترجمة: سمير كرم. طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.
* المقريزى [كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك] تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
* مكسيموس مونروند [تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق، المدعوة حرب الصليب] ترجمة: مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.
* ميشيل عفلق [فى سبيل البعث] طبعة بغداد سنة ١٩٨٦م، سنة ١٩٨٧م. وطبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.
* نيكسون (ريتشارد) [الفرصة السانحة] ترجمة: أحمد صدقى مراد. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.
* هوبرت هيركومر، جيرنوت روتر [صورة الإسلام فى التراث الغربى] ترجمة: ثابت عيد، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.
* ول ديورانت [قصة الحضارة] ترجمة: د. عبدالحميد يونس. طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م وسنة ١٩٧٢م.

دوريـات :

* الأهرام - القاهرة.
* شئون دولية - لندن.
* الشرق الأوسط - لندن.
* العالم الإسلامى - مكة.
* الكتب - وجهات نظر - القاهرة.

هـذا الكـتـــاب

- يؤمن المسلمون بكل النبوات والرسالات ·· ويُعظِّمون كل الرسل والأنبياء
- بينما توراة اليهود وتلمودهم يدعوانهم إلى « أكل الشعوب الأخرى » !·· وإبادة غير اليهود !··
- وكذلك النصرانية الغربية ، التى تسعى لتنصير كل المسلمين ، وإزالة الإسلام من الوجود !
- ومع اليهودية والنصرانية تقف « النزعة المركزية » للحضارة الغربية ، فتعمل - بتغريب العالم - على إلغاء الآخر ·· وصب العالم - بالعولمة - فى قالب النموذج الحضارى الغربى !··
- ومع كل هذا ·· نرى الكَذَبة من غلاة العلمانيين يتهمون المسلمين بالضيق بالآخر ، ورفض التعايش مع الآخرين !··
- ولتتبع علاقة الإسلام بالآخرين ·· وموقف الآخرين من الإسلام - فى الثقافات الدينية والمدنية - كشفًا للحقائق ·· وفضحًا للأكاذيب ·· يصدر هذا الكتاب.

